فأين تذهبون؟!!

وقفات ومفاهيم

بقلم

الشيخ خميس جابر صقر

موجه عام علوم القرآن بالأزهر الشريف

وعضو لجنة مراجعة المصاحف سابقًا

٨٦٢٩٢٢



الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ ٢٠١١م


بسم الله الرحمن الرحيم


قَالَ تَعَالَىٰ:
﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى
ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ
بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ
رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾
(سورة الأعراف: ٥٤)

مُقَـدِّمَة

الحمدلله الذى فتح بالحق قلوبًا غُلْفًا .. وآذانًا صُمًّا .. وأنار بالمعارف عقولاً عُطْلاً .. ورفع بالهمَّة نفوسًا سُفْلى ..

والصلاة والسلام على من بالأخلاق تحلَّى .. وبعظيم الأعمال تجلَّى .. وعلى آلـه وصـحبه وعن من عداه تخلَّى ..

وبعد

ففى حياة العلماء وأصحاب الرؤى مواقف تتجلى فيها المعـانى كاشـفةً غمـوض الجهـل بالحقائق .. ومقيمةً بنيان المعارف والدقائق .. وعازمة على التكيف والتحصُّن – على أىِّ حال – كانت النوازل أو الطوارق .. ففيم يفيد الجهل بالمسائل مادام هنـاك عقـل عاقـل ؟ أو نقـل ناقل ؟ أو تحصيل محصِّل ؟ والحق أبلج وأدقُّ .. والباطل أثقل وأشقُّ ..

وقد حاولت من منطلق الأمل والعمل . . أن أفضَّ نزاعًا طال أمده .. وصـخبًا وجـب صَدُّه وردُّه .. حول مفاهيم قديمة تتجدد بـين الحـين والآخـر مـن غـزو فكـرىٍّ نـشطٍ .. أو خصومة مفتعلة حشد لها – المثقفون المنافقون – كل طاقاتهم ليعلنـوا مـن فـوق منـابرهم أن الإسلام يضيِّق بإيديو لوجياته على الباحثين فى شتى مجالات الفكر .. ويسوِّى بمعتقداته بين الثابت والمتغير – ذاهبًا فى ذلك كل مذهب – ومعتقدًا بذلك التـسليم كـل معتقـد .. فقمـت بتأليف ذلك الكتاب لأبرِّهن به على بطلان شعاراتهم .. ودحض أفكارهم وجرائمهم .. وأن الإسلام بالقرآن وبالسنة .. علَّم الأمم .. وفتَّق أجواز العقـول بالمعـارف .. ببيـان الإعجـاز ومعناه .. حول المفاهيم الدقيقة دفاعًا عن الدين وإظهارًا لمعجزات الأنبياء وبحثًا فى عجائب الفضاء والأرقام والأعداد .. فالمواجهة قائمة .. والاحتمالات قادمة وواردة .. فإمَّا أن نكون أو لا نكون .. والحق معنا ما دمنا فى رحابه .. ولحقنا بركابه .

والحمدلله الهادى إليه .

الشيخ خميس جابر صقر

البَابُ الأَوَّلُ

الاستشراق

ومحاولات التغلغل

الاستشراق ومحاولات التغلغل

يطلق لفظ (الاستشراق) ويراد به : انفراد جماعة من الباحثين الغربيين المتخصصين فى مجالاتٍ مّا بقصد الطعن فيها والنيل منها لخدمة أهداف سياسية واستعمارية وفكرية عامة – والترويج للأفكار الهدامة – وحمل العرب والمسلمين على التسليم للغرب ونزع الهوية الحضارية منهم قاطبة..

.. ومعروف أن لهم نزعة دراسية اعتادوا بها ردَّ كل عناصر ومنظومة الإسلام إلى اليهودية والنصرانية ولقد كان[1] المستشرقون القدامى هم أكثر من اهتم بهذه النزعة حتى إن أحدهم وهو المستشرق اليهودى (إبرهام غايغر) أصدر عام ١٨٣٣ كتابًا بعنوان: ماذا أخذ القرآن عن اليهودية..؟ حاول فيه تفكيك وتقطيع مضامين القرآن الكريم لردها إلى عناصر توراتية يهودية مزعومة وحيثما وجد التشابه بين الموضوعات القرآنية والموضوعات المبثوثة فى الإنجيل أو التوراة تكون أحكامهم حاضرة.. ومنذ سنوات أصدر المستشرق الفرنسى اليهودى الأصل (شوراكى) ترجمة لمعانى القرآن احتفظ فيها بالأصول العربية لبعض الألفاظ من غير ترجمة إمعانًا فى بيان أصلها العبرانى.

كما حاول المستشرق المجرى (إنياس جولدزيهر) المعروف بالدهاء والتحايل النفاذ إلى القرآن بحثًا عن عناصر أجنبية يشده بها إلى أصولها المدعاة بقوله: (القرآن مصدق لما سبقه من الرسالات الدينية وقد استصفى منها بعد فترة من الرسل ما هو من جوهر الدين..) ويحاول تعزيز دعواه بقوله (شعيرة الصلاة التى كانت بصورتها الأولى من قيام وقراءة وما فيها من ركوع وسجود بما يسبقها من وضوء تتصل بالمسيحية الشرقية والصوم الذى جعل أولاً فى يوم عاشوراء محاكاة للصوم اليهودى الأكبر فيما يتعلق بشعائر الحج التى ينظمها الإسلام أو بالأحرى احتفظ بها من بين تقاليد العرب الوثنية.. وقد جعل محمد ﷺ أهمية كبرى لنية التقوى التى يجب أن تصحب هذه الشعيرة حين يقول: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾.. [الحج: ٣٧] والسبب فى ذلك كله هو تشبع المستشرقين

---

(١) مجلة الوعى الإسلامى العدد ٤١٢، إبريل ٢٠٠٠م وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية.

بمنهج الأثر والتأثر وإنه قد طبق بصورة صارمة فى بيئتهم التى تأثرت بالنهضة اليونانية (حضاريًا) ومن خلال هذا الفهم تم تطبيق هذا المنهج على كل معطيات التراث الإسلامى ومنها حقل القرآنيات.. ولعل أبرز حقل قرآنى مارس فيه القوم هذا المنهج هو ما تعلق بترتيب الآيات والسور فى القرآن حيث نجد معظم المستشرقين المعاصرين قد أبدوا فى مسألة ترتيب الآيات على وجه الخصوص موقفًا مخالفًا لما هو مقرر لدى المسلمين من كون ترتيب الآيات أمرًا توقيفيًا لا خلاف فيه – فهم إذًا وانطلاقا من منهجهم التاريخى الذى يفترض ترتيبًا منطقيًا يقبله العقل البشرى – حاولوا افتراض ترتيبات جديدة يحكمها الهوى المجرد وقد علقوا على هذا الترتيب أخطر النتائج واتخذوه أكبر مدخل للطعن فى صحة القرآن وتضارب أحكامه وخضوعه على الظروف الزمانية والمكانية.. فالمستشرق الإنجليزى (آرثر جيفرى) يأتى مثلاً بفرضية حول سورة الجن فيقول: (إن الآيات الخاتمة للسورة تختلف كثيرًا فى الشكل والأسلوب وتظهر وكأنها قطعة غريبة وضعها جامعوا القرآن أو كتبته..) وهذا (روديل) ينطلق من كون الآيات التى نزلت مع أول الوحى كانت تتسم بالقصر حاول أن يضع على أساسها ترتيبًا جديدًا للسور المختلفة فنراه لذلك يعلق على سورة الملك بقوله: (من الواضح أن الآيات من ٨ : ١٦ قد نزلت متأخرة عن بقية السورة ثم ألحقت بها لأن كلاً منها أطول بكثير من بقية آيات السورة) .. وفى دراسة للمستشرق الفرنسى (كلود جيليو) الأستاذ فى جامعة (إكس أن بروفانس) حول الآية الأولى من سورة الإسراء والتى حاول أن يبرهن بأنها قد جاءت منفكة ومنعزلة عن بقية الآيات رغم تعلقها بحادثة الإسراء لأنها فى نظره تنتهى بفاصلة مخالفة لما فى بقية السورة وتنتقل إلى موضوعات لا علاقة لها بحدث الإسراء بصورة مفاجئة.. ويعزز افتراءه بما ذكره (نولدكه) فى كتابه (**تاريخ القرآن**) بقوله: (قد تكون هذه الآية مختلفة بعد وفاة محمد ﷺ وأدرجت فى القرآن فى خلافة أبى بكر لأنه من المستحيل أن يكون محمد ﷺ قد ادَّعى الإسراء به إلى بيت المقدس ما دام كان يصرح دومًا أنه مجرد بشير ونذير وليس صانع معجزات..).

.. إن هذه الآيات التى نعتوها بالدمج المتأخر قد جاءت مترابطة بدرجة كبيرة وعلى أسس من البلاغة الفائقة مع الآيات السابقة لها والتى تأتى بعدها وهو ما بينه المفسرون فى

أثناء حديثهم عن تناسب مطلع سورة الإسراء لما بعدها والحديث عن (صيغة الالتفات الحاصلة بين الآية الأولى: صيغة الغيبة والآيات التى بعدها: صيغة الحضور) مما استغربه (كلود جيليو) فى بحثه الآنف الذكر ويكفى للرد على افتراضاتهم القول: إنه إذا كانت تلك الآيات لم تنزل فى الوقت نفسه الذى أنزلت فيه بقية السورة.. فما ذلك إلا دليل صريح على أن ما جاء فى المصحف من ترتيب للآيات على غير الترتيب التنزيلى إنما هو من عند الله الحكيم الخبير.. وكفى ،، ومن أغرب ما أثير حول المنهج الافتراضى رأى المستشرق الإنجليزى المعاصر (مونتجمرى وات) والذى وقف منه عند أمر القرآن للمؤمنين بالاستئذان قبل الدخول لبيوت غير بيوتهم فى قول الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٨ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٩ ﴾ [النور٥٨: ٥٩] .

فلم يجد تفسيرًا لذلك إلا أن يقول: (إن ذلك دليل على انحطاط فى مستوى الأخلاق كان النبى ﷺ بحاجة إلى السمو به فى نفوس أصحابه.. فمن أين أتى الرجل بهذا الافتراض والاستنتاج؟ وهل هذا يعنى أن الأخلاق لو كانت غير منحطة فهل ذلك يسمح بولوج بيوت الآخرين من غير استئذان.....).

المنهج الاسقاطى:

تفسير الوقائع والنصوص بالإسقاط أمر دأب المستشرقون على توظيفه فى أبحاثهم القرآنية.. ونعنى بالمنهج الإسقاطى إسقاط الواقع المعاش على الحوادث والوقائع التاريخية وهكذا يتم تفسير الوقائع وفق المشاعر الإنسانية الخاصة والانطباعات التى تتركها بيئة ثقافية معينة.. فالمستشرق الباحث عندما يضع فى ذهنه صورة معينة يخضعها إلى ما ارتضته مخيلته

وانطباعاته.. ومن أمثلة المنهج الإسقاطى لدى المستشرقين ما أورده (بلاشير) فى سياق البحث عن أسباب عدم جمع القرآن فى مصحف فى عهد النبى ﷺ من أنه ﷺ وأصحابه كانوا يميلون إلى ترك الأمور على ما هى عليه لأن العرب فى جملتهم لا يفكرون إلا فى الحاضر ولا يهمهم المستقبل وهذا الميل يقف وراء عزوف المسلمين عن جمع القرآن فى عهده ﷺ ولا شك أن هذا التفسير الإسقاطى الفاسد لا يستند إلى أدنى دليل علمى أو منطقى فهو منهج يخضع لهوى المستشرقين وأحكامهم المسبقة ما تنتج منه أحكام تعسفية وجائرة إذ المعلوم أن الرسول ﷺ كان يحض أصحابه على حفظ القرآن وكتابته خوفًا عليه من الضياع وقد بلغ الحرص على كتابته وتدوينه فى مختلف الوسائل التى كانت متاحة وقتئذ أن نهى أصحابه أول الأمر من كتابة الحديث حتى لا يختلط بالقرآن.. كما أنه ﷺ كان يستدعى كتبته الذين فاق عددهم الأربعين ويأمرهم بكتابة جميع ما ينزل عليه من القرآن ويشير إلى مواضع الآيات من السور وهو ما يشير إليه حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه : (كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من (الرقاع[1]) فكل هذا يدل على أن الرسول ﷺ وصحابته كانوا يفكرون فى حفظ القرآن مدونًا ومكتوبًا لمن يأتى بعدهم غير أن جمعه فى مصحف لم يكن ممكنًا آنئذ لأنه ﷺ كان ينزل عليه القرآن منجمًا طيلة ثلاث وعشرين سنة فكان يترقب كل مدة ورود زيادة أو نسخ لبعض الأحكام أو التلاوة.. ومن أمثلة هذا المنهج الإسقاطى أيضًا ما ذهب إليه بعضهم من أن ما يميز أسلوب القرآن المكى عن الأسلوب المدنى يرجع إلى بيئة قريش المنحطة وبيئة المدينة المتقدمة والمتحضرة فإذا كانت الآيات المكية قصيرة فلأن معظم أهالى مكة أميون جاهلون وأجلاف.. وإذا كانت الآيات المدنية طويلة وواضحة فلأن البيئة المدنية مثقفة واعية ومتأثرة بالنفوذ اليهودى المهيمن عليها.. ولا شك أن هذا الكلام يهدف إلى إثبات دعوى تأثر القرآن وأسلوبه بالبيئة التى نزل فيها ويرمى المستشرقون من وراء هذا إلى القول بأن القرآن من كلام محمد ﷺ وليس من كلام الله تعالى ويتجاهل المغالطون الذين يعلمون جيدًا مراحل تطور الدعوة الإسلامية من مكة إلى المدينة أن خطاب أهل المدينة لا يمكن أن يكون مماثلاً لخطاب أهل مكة فتأسيس الدولة الإسلامية فى المدينة فى ظل بيئة جديدة قد أصبح يستدعى التفصيل

---

(١) الرقاع: جمع رقعة وهو ما يكتب عليه كالجلد ونحوه – الإتقان للسيوطى ج١.

فى التشريع وبناء المجتمع الجديد فلا غرو إذًا أن يطنب القرآن بعد ما كان يجمل.. أما فى مكة فقد كانت الآيات التى تنزل تشتد فى تسفيه أحلام المشركين ومقارعتهم بالحجج وتحديهم فالأمر كان يتعلق بتأسيس أسس العقيدة الصحيحة وتدمير معالم العقائد الوثنية السائدة وطبيعة الأسلوب القرآنى قد اختلف من مكة إلى المدينة نظرًا لمراعاة حال وتدرج الدعوة وليس فى ذلك أدنى مراعاة لمدى تحضر أو تخلف الأقوام المخاطبين كما رمى إلى ذلك زمرة المغالطين والمغرضين من مستشرقى اليهود وغيرهم.

التأثير الاستشراقى:

والواقع أن التأثير الاستشراقى قد طال وتمكن من بعض المستغربين من العرب وعلى رأسهم[1] (طه حسين) الذى ركب (الموجة) الغربية وأذاع فى طلبة كلية الآداب أن القرآن المكى والمدنى بينهما اختلاف ظاهر، ذلك أن القرآن المكى جاف وأن المدنى رقيق والسر فى رقته هو اتصال النبى ﷺ باليهود بعد الهجرة إلى المدينة.. وهذا الكلام منقول باللفظ عن واحد من أخطر المستشرقين اليهود (جولد زيهر) فى كتابه (**الشريعة والقصيدة فى الإسلام**) الذى قال ببشرية القرآن – أى أنه ليس وحيًا إلهيًا – وأن القرآن لم يأخذ خطًا واحدًا فى التعبير عن مدلول القضايا التى ساقها وأن أسلوبه متباين بين البيئتين المكية والمدنية وأنه كان فى المرحلة الأولى سجع وفى المرحلة الثانية سجع مجرد من الاندفاع العاطفى فضلاً عن عدة طعون فى القراءات القرآنية المتواترة والدفع إليها بالشبهات على نحو غير مسبوق بل ويؤكد فى طعنه أن هذه الخلافات بين القراء مردها إلى الشك والارتياب والخلل الواضح ناسيًا أو متناسيًا أنه علم له ركائز وثوابت يقوم عليها وأنه من فصيح اللهجات العربية مما تواترت قراءاته ورواياته.. وعلى كل حال فإن هناك سببًا واضحًا فى هذه الواقعة العدائية للقرآن.. حيث إن القرآن الكريم وقف من التوراة والإنجيل الموجودين فى أيدى الناس موقفًا واضحًا هو أنهما مما كتب البشر وليس مما نزل من عند الله.. كذلك فإن القرآن هو الذى قدم تلك الحقائق المغايرة لما جاءت به التوراة المكتوبة بأيدى الأحبار والإنجيل المكتوب بأيدى الرهبان

---

(١) موسوعة: (مقدمات العلوم والمناهج) ج٥، أنور الجندى، طبعة دار الأنصار ١٩٨٣.

وخاصة فى التوحيد الذى هو طبيعة دين الله الحق دون التعدى ونبوة المسيح عليه السلام وإنكار ألوهيته وفى رفع عيسى دون قتله أو صلبه وإنكار قضية الخطيئة والفداء وإنكار قضية شعب الله المختار إلى غير ذلك من القضايا وقد أقام القرآن الحجة فى أمور كثيرة اختلف فيها الرأى وخاصة فى نبوات موسى وعيسى وداود ولوط وما ورد فى الكتب القديمة من صور مغايرة لمكانتهم كأنبياء ورسل لله تعالى مكرمون ومعصومون..).

أما الذين يدعون بأن القرآن مصدرًا من الإنجيل أو التوراة فإنهم يجهلون ما أورده القرآن من أصول جديدة لم ترد فى الكتابين ومن تفصيلات أخرى لم يعرفها اليهود ولا النصارى مع أنها تعتبر من صميم دينهم ولم يعرفوا عنها شيئًا مثل: كفالة زكريا عليه السلام للسيدة مريم عليها السلام بعد ولادتها.. وكذلك إخبار القرآن بأشياء وتحققت تحققًا تامًا بعد الإخبار بها كإخباره عن انتصار الروم بعد انخذالهم وكان الفرس قد غلبوا الروم عام ٦١٠ (وانتصر الروم بعد بضع سنين) ما بين الثلاث والتسع كذلك فإن القرآن أخبر بأمور ما عرفت إلا فى العصر الحديث وما كان أحد يعرفها أو يؤمن بها إلا المسلمون ولم يرد بها أى إشارة من علم التوراة أو الإنجيل.. ومن ذلك إخباره بانخفاض الضغط الجوى فى أعالى الجوِّ كما هو وارد فى قول الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وكذلك الإخبار عن اهتزاز الأرض عند نزول المطر عليها قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج: ٥] وفى القرآن أمور لا يمكن أن تنسب إلى رسول الله ﷺ لأنها تحوى معاتبته على تصرف من التصرفات وما كان للرسول أن يكتب القرآن ثم يعاتب نفسه وذلك فى أمر إطلاق أسرى بدر وفى مسألة الأعمى وفى مسألة الصلاة على المنافقين وفى مسألة زينب بنت جحش.. أما الزعم بأن النبى ﷺ أخذ من التوراة والإنجيل وتأثر بأسلوبها فأبسط ردٍّ على ذلك هو أن ما فى القرآن مخالف لما فى التوراة والإنجيل مخالفة تامة وهناك أمور فيها مخالفة جوهرية وذلك شأن مريم وعيسى ومعارضة القرآن للتثليث والصلب والخطيئة كما ذكر آنفًا.. أما الزعم بأن النبوة أمر كان

يتوقعه الرسول ﷺ ويرغب فيه وبأن النبى ﷺ كان له صديق يكلمه فإن الأخبار الثابتة الصحيحة لم ترد مطلقًا بأن النبى ﷺ كان يرجو أن يكون النبى المنتظر ولو كان كذلك لدوّنه المحدثون والمؤرخون كما دوّنوا عن (أميَّة بن الصلت) بل لقد صرح القرآن بقوله :

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [القصص: ٨٦] .

وقد شهد أعداؤه له جميعًا بالصدق وخاصة أبو جهل ولو كان شيء من ذلك صحيحًا لكان كفار قريش أدرى به من صاحب هذه الفرية (بروكلمان) ومن شايعه وكان يكون عندئذ من أكبر الحجج بين يدى المشركين والمنافقين واليهود، كذلك فقد برأ القرآن الرسول من أن يكون له من يعلمه حيث قال:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل:١٠٣] .

كذلك فقد كشف الباحثون مقطع الأمر فى قضية المفردات الأجنبية التى التقطها المستشرقون ليلمزوا القرآن بأن عربيته ليست كاملة فهذه الكلمات التى تبدو أجنبية وهى ليست كذلك إنما جاءت عن طريق الاشتراك فى أصل اللغات العربية القديمة أو اتصلت عن طريق النقل والتعريف بالتجارة والأفكار والمجاورة واستعملت فى اللغة استعمالاً جاريًا وفق قوانينها ولهذا استعملها القرآن وخاطب بها ربنا العظيم عباده بلسانهم لأنه لا يعقل أن يستعمل القرآن كلمات غير عربية وغير مفهومة عند العرب ثم يخاطبهم القرآن بها ويسميه عربيًا مبينًا ليكلفهم بعد هذا كله شيئًا لا يفهمونه.. وقد أثبت عديد من الباحثين أن الكلمات الأجنبية التى أوردها بعض المستشرقين كانت فى أصلها عربية نقلت على هذه اللغات الحبشية والسريانية والفارسية ثم عادت إلى عربيتها مرة أخرى وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام الطبرى حين قال: (إنه غير جائز أن يتوهم ذو فطرة صحيحة مقر بكتاب الله ممن قرأ القرآن وعرف حدود الله أن يعتقد أن بعض القرآن فارسى لا عربى وبعضه نبطى لا عربى وبعضه حبشى لا عربى بعدما أخبر الله تعالى فى ذكره عنه أنه جعله قرآنا عربيًا.. بل إن الله تعالى نفى عنه

العجمية ونفى أن يكون بعضه أعجميًا وبعضه عربيًا) قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤].

أهداف المستشرقين

أولاً: القضاء على روح الإسلام وذلك بدراسة خصائص الفكر الإسلامى بروح مسبقة قائمة على أحكام متعارضة بقصد النيل من هذا الفكر.

ثانيًا: التهجم على القرآن الكريم والرسول ﷺ من خلال المقارنة ومحاولة التلبيس والتشويش وبث بذور الشك عند المسلمين.

ثالثًا: الكسب من الدراسات الإسلامية من أجل تحسين وسائل التبشير ومعرفة الجوانب التى يستطيع المستشرق أن يثير منها الشبهات فى وجه المسلمين وتحقيق التطلعات والأطماع الغربية الهدامة.

رابعًا: التركيز على العاميات والعناية بدراستها واعتبارها اللغة المستعملة وإثارة الاهتمام البليغ بها بهدف القضاء على اللغة الفصحى باعتبارها لغة القرآن.. مما يساهم فى تمزيق الأمة العربية والإسلامية.

خامسًا: محاولة إعلاء الغرب واعتبار الشرق تابعًا له فى الحضارة والثقافة وإنكار تقدم العرب والمسلمين وأن تاريخ العالم هو تاريخ الغرب وحده.

سادسًا: تصوير الدين بأنه جملة من العادات والتقاليد بقصد الإعلاء من شأنها فى المجتمعات لحجب الأخلاق التى هى جزء أساسى من الدين.

سابعًا: إقناع قومهم بعدم صلاحية الإسلام لهم كنظام حياة وذلك بإثارة الشبهات حول جزئيات عقائده وتشريعه خاصة بعد انتهاء الحرب الصليبية وعودة المحاربين إلى أوربا وما حملوه من صورة باهرة لمعاملة المسلمين لهم مما اعتبرته الكنيسة معارضًا لوجهة نظرها.

ثامنًا: تأويل مادة الجهاد وتحطيم وحدة الدين والدولة وعزل الشريعة الإسلامية عن التطبيق وإحلال أنظمة قانونية واقتصادية وتربوية وسياسية لتحل محل النظام الإسلامى بالقوة وفرض السيطرة.

تاسعًا: فصل المسلمين عن جذورهم الثابتة الأصلية بتشويه الأصول وتقطيعها وعزلها عن مصادرها وأصولها.

عاشرًا: التأثير فى نفوس المسلمين وزحزحة عقائدهم بما يفتح للتبشير المسيحى طريقًا إلى تحويل بعض صناع العقيدة إلى ملاحدة وأتباع وبث الفرقة والتوتر لخدمة النزاعات الاستعمارية.

أحد عشر: إنكار الوحى مما يصل بهم إلى القول بأن القرآن من عمل محمد ﷺ وأنه متأثر بالتعاليم اليهودية والنصرانية وربما الملل الأخرى.

اثنا عشر: دعوات الانسلاخ من الماضى والتراث وفرض الإقليمية والتجزئة.

ثلاثة عشر: الفهم التاريخى القائم على البحث عن التناقضات.

أربعة عشر: إخضاع النصوص للفكر الذى يفرضونه حسب أهوائهم والتحكم فيما يرفضونه أو يقبلونه من النصوص.

خمسة عشر: تحريف النصوص والتحكم فى المصادر التى ينقلون منها وكذلك وضع مسلمات وأسس مفترضة والبحث عن نصوص تؤيدها.





الباب الثاني

الإنسان

والظواهر الطبيعية فى القرآن





الإنسان والظواهر الطبيعية فى القرآن

المقدمة

المعطيات العلمية الحديثة كلها تؤكد سبق القرآن الكريم ورصده لحركة الكون ووصف الأجرام والكواكب والمجرّات وما يتصل بذلك فى الفضاء الكونى، كما تؤكد العلوم الفلكية أن الظواهر الطبيعية فى مجموعها كلٌّ متكامل ومنتظم تديره وتدبِّره قدرة عظيمة وإرادة غالبة متحكمة ومسيطرة بحيث لا يختل جزء من جزئيات هذه الظواهر لأن ذلك لو حدث لانقلب ميزان الكون كله...! والذى تحدث فيه هذه الظواهر والتى فصلتها آيات القرآن الكريم فى عدة مواطن وعلى عدة محاور وطرائق سوف نعرض لها بإذن الله.. فماذا عن هذا الكوكب الذى تجرى عليه الأحداث..؟؟.

الأرض: هى[1] الكوكب الذى أوجدنا الله عليه وهو عبارة عن كرة كبيرة سابحة فى الفضاء الكونى حول الشمس مثل سائر الكواكب بسرعة ثلاثين كيلو مترًا فى الثانية الواحدة ومحيطها أربعون ألف كيلو متر وقطرها ثلاثة آلاف فرسخ وهى أصغر من الشمس بنحو مليون وأربعمائة ألف مرة وللكرة الأرضية دورتان لأنها تدور حول محورها من الغرب إلى الشرق وتتمها فى أربع وعشرين ساعة وفائدة ذلك تكوين الليل والنهار بمحاذاة أجزائها المختلفة للشمس على التعاقب.. كما أنها تدور دورة محيطية حول الشمس وتتمها فى خمسة وستين يومًا وثلاثمائة فتقطع فى اليوم الواحد أكثر من نصف مليون فرسخ سابحة فى الفضاء الجوى ومعروف أن ثلاثة أرباع الكرة الأرضية مغطى بمياه البحر والربع موزع عليه أقسام الدنيا الخمس.. ودائمًا يكون النظر والحكم على الأشياء فطرة فطر الله الناس عليها وقد نظر الإنسان فى كل ما يحيط به منذ نشأته فى هذا العالم فأتى بمعلومات ناقصة كملها باستقرائه واستدلاله على مرِّ الأيام والسنين فلقد كان اليونانيون الأقدمون يعتقدون أن الأرض قرص مستدير مركزه بلادهم وهذا القرص – كما فى اعتقادهم – محاط بنهر يدعونه (الأقيانوس) تخرج منه الشمس صباحًا وتغرب فيه مساءً وفرضوا أن هذا القرص قائم على أعمدة لا

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين د. محمد فريد وجدى ج١ دار الفكر ص١٨١ .

يعرف مرتكزه على أى شيء وعليه قبة قالوا إنها الفلك تحته كواكب تسير على عجل محمولة على السحاب.. وكانوا يزعمون أن الشمس إذا غربت استقرت فى سفينة من ذهب تجرى بها مسرعة حتى تصل بها إلى الشرق وذهب بعضهم إلى أن هذا القرص عائم على الماء كالسفينة.. ورأى بعض الناظرين منهم أن الأرض ذات شكل مكعب وقال بعضهم: بل هى على هيئة جبل شاهق لقاعدته نهاية الأفلاك تدور حولها من جميع جهاتها.. وقرر آخرون بأنها جسم مسطح يحمله الهواء وهى لا تتحرك لكبر اتساعها وتلك هى الحكمة من عدم سقوطها فى تيهور الفضاء.. وبعد ظهور الفلسفة اليونانية أخذوا يتحدثون عن كروية الأرض وقالوا: إن الإنسان إذا وقف فى وسط صحراء متسعة وجد نفسه كأنه محاط بدائرة تماس من قبة السماء وهى حقيقة دائرة تماس لشعاع عينه البصرى بدليل أنه إذا ارتفع على منارة فى وسط هذه الصحراء اتسعت أمامه تلك الدائرة ورأى ما لم يكن يراه وهو فى الأرض وهذا دليل كما رأوه على كروية الأرض ومنها أيضًا: أن الإنسان إذا وقف على شاطئ البحر يرقب سفينة مقبلة فلا يرى أولاً إلا أعلى سواريها ولو استعان بالمجهر ثم لا يلبث أن يرى جزءًا أكبر من تلك السوارى وهكذا حتى يظهر مقدم السفينة ثم لا تزال تظهر شيئًا فشيئا حتى يراها جميعا وفى هذا دليل محسوس على كروية الأرض وفى الحقيقة أن الأرض كروية ولكنها ليست تامة التكور بل هى من جهة خط الاستواء أكثر انتفاخًا منها من جهة القطبين وقد قاس العلماء محيط الأرض من خط الاستواء ومحيطها من جهة القطبين فوجدوا أن تلك الدائرة من جهة خط الاستواء تزيد عن نظيرتها من جهة القطبين بنحو سبعين كيلو مترًا.. والأرض ككل الأجرام السماوية سابحة فى الفضاء الذى لا حد له مثلها فى ذلك مثل الشمس والقمر المرئيين وجميع الكواكب ولا معنى لأن تشذ الأرض عن تلك القاعدة وأما ما روى فى بعض الكتب من أنها محمولة على قرن ثور أو غيره فكله منقول عن كتب قديمة ليست من الحقيقة فى شيء.. وإذا كانت النهايات لاحقة تجمع الخلائق والأرض منها بالطبع فإن العلماء يقولون: إن[1] الطوفان الذى حدث فى الأرض فى عصر نوح عليه السلام ولا تزال آثاره باقية قد أطغى ماؤه على بعض الأرض وكان ذلك نتيجة مصادمة – مذنب – للكرة الأرضية فحدث من تلك

---

(١) المرجع السابق ص١٨٩.

المصادمة أن ارتجت واضطرب معها ماء البحر وطغى على اليابسة ويرون أن هذا سبب من أسباب فناء الأرض، يقول صاحب دائرة معارف القرن العشرين: (ويظهر لى أن هذا المذهب هو ما يريده القرآن الكريم وساق لهذا بعض الآيات القرآنية كقول الله تعالى: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا (٦) ﴾[الواقعة: ٤: ٦]

ومعنى بست - أى فتتت - وهباء منبثا - أى منتشرًا فى الفضاء - كما ساق أيضًا بعض الآيات الأخرى كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) ﴾[الطور: ٩: ١١] .

وكقوله عز شأنه: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١٥) ﴾[الحاقة: ١٣: ١٥].

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا (١٤) ﴾[المزمل: ١٤]

أى منثورًا.

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) ﴾ [الفجر: ٢١] .

وفى القرآن كما يقول المؤلف ما يشير إلى الرأى العلمى القائل بإمكان فناء الأرض بمصادمة كوكب من ذوات الأذناب.

وحول قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا (١٢) ﴾[الطلاق: ١٢] .

قال العلامة النيسابورى : ظاهر هذه الآية يدل على أن الأرض متعددة وأنها سبع كالسموات فذهب بعضهم إلى أن قوله ﴿ مِثْلَهُنَّ ﴾ أى فى الخلق لا فى العدد، وقيل: هو

الأقاليم السبعة والدعوة شاملة لجميعها، وقيل: إنها سبع أرضين متصل بعضها ببعض وقد حال بينهما بحار لا يمكن قطعها والدعوة لا تصل إليهم، وقيل إنها سبع طبقات بعضها فوق بعض لا فرجة بينها وهذا يشبه قول الحكماء منها طبقة هى أرض صرفة تجاور المركز ومنها طبقة طينية تخالط سطح الماء من جانب التقعير ومنها طبقة معدنية يتولد منها المعادن ومنها طبقة تركبت بغيرها وقد انكشف بعضها، ومنها طبقة الأدخنة والأبخرة على اختلاف أحوالها - أى طبقة الزمهرير - وقد تعد هذه الطبقات من الهواء.. وقيل: إنها سبع أرضين بين كل واحدة منها إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام كما جاء فى ذكر السماء وفى كل أرض منها خلق حتى قالوا فى كل منها آدم وحواء ونوح وإبراهيم وهم يشاهدون السماء من جهة أرضهم ويشهدون الضياء.

كما يحتمل أن يكون المراد بالأرضين السبع الطبقات الأرضية فقد أثبت علم (الجيولوجيا) أنها مكونة من طبقات بعضها فوق بعض وقد عاش على كل منها أحياء ثم بادوا، ولكن مما يبعد هذا الرأى ويرجح أنه غير مراد للقرآن قوله تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] أى أن حكمه تعالى يجرى بين تلك السموات والأرضين فإن كان المراد بالأرضين الطبقات فلا يصح الجمع بينها وبين السموات بالنسبة لتنزل الأمر بينهم مع ما علم من أن تلك الطبقات جامدة وفى حالة موات مستمر منذ مئات الألوف من السنين، وقوله: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ يشعر بأن هنالك فعلا وانفعالا وتأثيرًا وتأثرًا ويفيد أن يكون المراد تلك الانفعالات الطبيعية التى تحصل فى باطن الأرض بتأثير الحرارة المركزية..

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾[الانشقاق: ٣: ٥] والمعنى: إذا الأرض بسطت بأن زالت جبالها وتلالها وألقت ما فى جوفها من الدفائن والرفات وتخلت عن كل شىء فيها..، **أذنت لربها**: أى أطاعته وسمعت أمره، **وحقت**: أى صارت حقيقة بالاستماع له.. والأرض هى مستودع الأسرار والأخبار ولن يظل شىء من ذلك (مختبئًا) فيها على الدوام بل إن آيات القرآن الكريم

أثبتت أن كل ما في باطن الأرض معروف ومعلوم وأنه سيظهر ويخبر عن نفسه بقول الله عَجَّلَ:

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ -[الذاريات: ٢٠] .

كما يقول تعالى : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾ [الزلزلة: ١: ٥] .

ولقد كان بعيدًا عن الفكر والعلم أن الأرض عند برودتها وانكماشها تحدث بها التواءات أرضية ثم يكون الضغط على جوف الأرض محدثا للجسم والصخور الملتهبة وهذا ما ورد به القرآن قال تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾[الرعد: ٤١].



عـالـم الفضـاء

الهدف من دراسة علم الكونيات والفضاء هو محاولة جمع انطباع عام عن صورة الكـون وعن طبيعته، وكيف أصبح.. وكيف سينتهى؟! وكيف نظر إليـه العلـماء والفلاسـفة؟! مـع إحاطة القرآن علمًا بكل تفاصيل ودقائق هذا الكون وأسراره.. ثم وهو يحـاور كـل الملاحـدة ويرد على الغوغاء.. وينقض كل المزاعم القائلة بأن الفضاء الكونى تحركه قـوى (طبيعيـة) أو قوى شيطانية ونحن[1] هنا بإزاء موضـوع جـدلى قـديم، حـديث آثـار ثـورة فكريـة امتـدت جذورها إلى العقدين الثانى والثالث من هذا القرن ولقد فـشلت كـل النظريـات الحديثـة فى التوصل إلى كنه حقيقة هذا العالم كما حاول (أينشتين) فى نظرية (النـسبية) وافـترض افتراضًـا وهو: أن الكون وحدة متسعة ويعنى أن الكون سوف يبدو هو من أى موقع فى الفضاء ينظـر إليه منه وهذا ينفى تصور وجود حافة أو حدود للكون وينكر أيضًا أن الأرض تحتـل موقعًـا ممتازًا فى الفضاء، ومعروف أن الأرض[2]، وكل الأجرام الأخرى قد مرت بالمراحل التى مـر بها خلق الكون كله ولذلك فإن عمر الأرض هو نفسه عمر الكون الذى هو قبس من ضـياء عظيم البهاء وهذا القبس كـان جامعًـا لكـل مـا سـوف يكـون فى الكـون مـن مـادة وطاقـة وانشطرت مادته وانتشرت بسرعة هائلة لتكون سحابة كونية كثيفة جدًا مـن جزيئـات المـادة والإشعاعات الغزيرة وظلت هذه السحابة فى التمدد وقتا طويلاً حتى تحولت إلى دخان مـلأ الجـو الكـونى قـال الله تعـالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ [الأنبياء: ٣٠] .

والرتق: هـو الالتـصاق – والفتـق: الفـصل ومـن سـحابة الـدخان الكونيـة خلقـت السموات وخلقت من بقيتها النجوم ومن سحب الدخان التى تدور حـول النجـوم نـشأت الرمال والصخور التى خلقت منها الكواكب وكل الأجرام الصخرية الأخرى قال الله تعالى:

---

(١) الأرض فى الفضاء تأليف هيو أو ديشور ترجمة: محمد على ناصف صـ٣٥٤. الوعى العربى .

(٢) الكون وقصة الليل والنهار تأليف عادل حسين مكتبـة الفرقـان صــ٢٤ وبعـدها، تقـديم د. مـصطفى محمود.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

وهناك قول بإمكانية أن يكون هناك فى مكان ما فى السماء حضارات ومخلوقات ومنذ أن وجه (جاليليو) منظاره إلى الفضاء وهذا الفكر يتنامى بين الجنس البشرى الذى وجد أن ثمة عوالم أخرى تسبح فى الفضاء العريض كما يسبح عالمنا وهناك احتمال كبير لوجود حياة عاقلة فى أماكن أخرى من الكون يمكن أن يرى بسهولة إذا ما تصورنا أن هناك ملايين الملايين من النجوم فى الكون ولقد أشار القرآن إلى ذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ١١: ١٢].

والذى قدر على إيجاد خلائق فى باطن الأرض قادر على إيجاد أمثالها فى الفضاء الكونى قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]

وكثير من الآيات التى تتحدث عن السماء وإبداع الخالق جل شأنه فيها وفى فضائها ليجل عن الوصف فعندما نقف أمام قول الله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ

بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

نجده يصور الأيام بأنها من أيام الدنيا أطول كل يوم ألف سنة على قول ابن عباس – رضى الله عنهما – وبأنه عمد إلى خلق العرش وغطى الليل بالنهار والنهار بالليل يطلب كل منها الآخر سريعًا مجيئًا وذهابًا وخلق الشمس والقمر والنجوم مذللات بأمره وإذنه، وإذن فهو القادر على القضاء بين العباد يوم القيامة فى يوم مقداره ألف سنة وهذا خطاب كونى شامل من بدايته إلى نهايته – ثم وهو يقول: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [النحل: ١٢]، وأيضًا: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل: ١٦] فالآيات هنا تشير إلى أن التسخير والتذليل من الله وحده وكذلك الاهتداء بالنجوم كالفرقدين والجدى عند السفر فى البر والبحر وغيره كما أنها فوق ذلك – نجوم السماء الساطعة – التى جعلها الله تعالى زينة ومصابيح فى السماء الدنيا على ما وصفت به كذلك: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ [الملك: ٥]، فضلاً عن محقها للشياطين من مسترقى السمع.. كما وضح الله تعالى ذلك فقال فى موطن آخر:

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الصافات: ٦: ١٠].

فهذا الفضاء الكونى الشاسع واللا محدود هو فى قبضة خالقه ﷻ وما فيه من مجرات وكواكب ونجوم ساطعات وشمس وقمر ليدل على القدرة الخارقة التى لا توصف ولا تحد ولا تخضع لقانون أرضى أو بشرى قال رب العزة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام: ١]

وقال: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ ﴾ [النور: ٣٥].

وقال كذلك: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد: ٢].

ومن آيات الله تعالى آية الشمس والقمر كما أشار إلى ذلك القرآن قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت: ٣٧].

فلقد[1] خلق الله تعالى الشمس وهى أحد نجوم السماء والنجم جسم غازى ملتهب يشع حرارة وصفاء ولأن حجم النجم أكبر بكثير من أحجام اتباعه من الكواكب فإنه يقودها ويسيطر عليها بجاذبيته ويمدها بالضياء والطاقة وتقوم بينه وبين توابعه من الكواكب والكويكبات والشهب والنيازك والمذنبات وما تبقى من غمامات كونية على حدود النظام النجمى قوى من الجذب والطرد وبتوازن هاتين القوتين تتحدد العلاقات والقوانين والمسافات بين النجم وكواكبه وبين الكواكب بعضها البعض.. أما القمر فهو كوكب صغير أسره كوكب الأرض بالقرب منه فأصبح تابعًا له على الدوام وهو جسم صخرى معتم لا يشع حرارة ولا ضياء ولكن سطحه يعكس أشعة الشمس الساقطة عليه مثل أى كوكب آخر فيبدو منيرًا فى السماء ليلا لأن القمر هو أقرب إلينا من الكواكب الأخرى فإن نوره يكون لامعًا وظاهرًا عن أنوارها، وهذا هو الفرق بين الشمس والقمر الذى يتجلى فى قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس: ٥].

---

(١) الكون وقصة الليل والنهار المرجع السابق ص ٦٠ .

فالشمس يتدفق منها الضوء والحرارة باستمرار بينما تنعكس أشعة الشمس على سطح القمر فيبدو منيرًا فى السماء ليلاً، أما فى النهار فإن ضوء الشمس يجرى نوره ويغلب على أمره ولكل من الشمس والقمر فلكه الخاص الذى يدور فى محيطه فالقمر يبعد عن الشمس بحوالى (١٤٩.١٣) مليون كيلو متر تقريبًا ولكن الشمس قد تجتمع مع القمر فى الأفق ويكونا معا فى اتجاه واحد، لذلك كثيرًا ما يحدث للشمس كسوفًا كليًا أو جزئيًا عندما يكون القمر بينها وبين الأرض والثلاثة على خط واحد تقريبًا ورغم ذلك فلكل من الشمس والقمر فلكه الخاص الذى يدور فى إطاره قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٣] ؛ ولأن لكل منهما فلكه الذى يدور فيه والذى يبعد عن الآخر بعدًا شاسعا فلن تجتمع الشمس والقمر اجتماعًا حقيقيًا أبدًا أى لن يقترب نجم الشمس من القمر لأن ذلك يعنى الفناء لكل منهما ولذلك يقول الله تعالى:

﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: ٣٨: ٤٠]

والشمس والقمر يدوران فى فلكيهما دورانا مستمرا ليس فيه خطأ أو تقصير لأن الله تعالى هو الذى سخرهما لنا وهو القيوم عليهما قال عز من قائل: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

وهذا الدوران مستمر إلى أن يشاء الله لهذه الأجرام بالنهاية فتهوى وتفنى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ [الرعد: ٢].

ومن المعروف أن الأرض تدور حول نفسها أمام الشمس فى اتجاه عام من الغرب إلى الشرق فتبدو الشمس ظاهريًا وكأنها هى التى تدور لتشرق من الشرق وتغرب فى الغرب فيكون للكرة الأرضية مشرق ومغرب ؛ ولأن هذا النظام البديع هو من صنع الله تعالى:

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل: ٩] .

ونجد أن الشمس تشرق على كل جزء من سطح الأرض وتغرب عنه أيضًا وذلك يحدث بصورة دائمة بسبب دوران الأرض المستمر حول نفسها ولذلك يختلف التوقيت من دولة إلى أخرى ومن مكان إلى آخر داخل الدولة الواحدة فكل جزء من سطح الأرض عندما تشرق الشمس عليه يكون مشرقًا وعندما تغرب يكون مغربًا وبذلك يكون لسطح الأرض آلاف الملايين من المشارق والمغارب ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٤١﴾ [المعارج: ٤٠ : ٤١] ، فالشمس فى اليوم الواحد تمر على كل جزء من سطح الأرض لتشرق عليه وتغرب عنه وبذلك يكون للأرض آلاف الملايين من المشارق التى هى مغارب أيضًا وبدوران الأرض حول نفسها يتعاقب الليل والنهار عليها وتدور حول الشمس فتتعاقب عليها فصول السنة الأربع وعندما يأذن الله تعالى بالفناء سيتغير نظام دوران الأرض حول نفسها فيكون دورانها يومئذ حول نفسها من الشرق إلى الغرب وهو عكس اتجاه دورانها الحالى فتبدو لنا الشمس وهى تشرق من الغرب وتغرب فى الشرق ولذلك فإن التغير الحقيقى فى آية طلوع الشمس من مغربها سوف يكون فى اتجاه دوران الأرض فتطلع الشمس من مغربها:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٥٨﴾ [الأنعام: ١٥٨] .

والقمر كذلك آية من آيات الله تعالى وهو كوكب صغير مصاحب لكوكب الأرض فقد نشأ معه وبالقرب منه وهو يدور حول الأرض ومعها حول الشمس ولكن مستوى مدار الأرض وسرعة دورانه حول الأرض تختلف عن سرعة دوران الأرض حول نفسها ولذلك فهو يظهر بأشكال عديدة ومنتظمة هذه الأشكال ناتجة عن اختلاف مواقع القمر أثناء دورانه حول الأرض بالنسبة لها وللشمس وهذه المواقع تعرف بمنازل القمر، وعندما تقع الأرض

بين الشمس والقمر ويكون القمر فى مقابل الشمس – أى فى وضع الاستقبال – فإنه يواجه الأرض بنصفه المضيء كاملاً ويعرف هذا الوجه بالبدر ثم يتناقص نور القمر شيئًا فشيئًا فيمر بدور الأحدب الثانى ثم التربيع الثانى ثم الهلال وهو أول شكل ظهر به نور القمر قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يس: ٣٩].

وقال: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الرحمن: ٥]، وتعتبر منازل القمر أساسًا يعتمد عليه فى تكوين التقويم القمرى أو ما يعرف بالهجرى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس: ٥].

ولا شك أن التقويم له أهمية كبرى فى حياة البشر حيث قال تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقد تحدث القرآن الكريم عن النجوم التى تنتشر فى الفضاء الكوني وأقسم بها والنجوم: هى أجرام غازية قوامها الأيدروجين والهليوم وهى أجرام ملتهبة جدًا تشع حرارة وضياء بسبب التفاعل النووى الاندماجى بداخلها وهذا التفاعل يحدث نتيجة لارتفاع حرارة باطنها أو مفاعلها ارتفاعًا عظيمًا كما تخرج من النجوم ألسنةٌ ناريةٌ فى شكل أعاصير جبارة من اللهيب الذى يندفع لمسافات بعيدة فى الفضاء فينتشر منها جهد حرارى ومغناطيسى كبير يعرف بالأعاصير النجمية (١)؛ ولأن النجوم تفوق بكثير أحجام باقى أفراد مجموعاتها النجمية من الكواكب والكويكبات والشهب والنيازك والمذنبات فإنها تسيطر عليها بجاذبيتها الرهيبة وقد يعترى النجم تغير فيؤثر فيه تأثيرًا بالغا وهو التكور يقول الله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ ﴾ [التكوير: ١] والشمس أحد نجوم السماء ومعنى تكوره أى أنه اتخذ شكل الكرة.. والنجم – مع ذلك – وإن كنا نراه من بعيد على شكل كرة فهو ليس كذلك

---

(١) الكون وقصة الليل والنهار ص١٣٩.

تمامًا فهذه الكرة متعرجة فى سطحها الذى يحدث به بعض الانقباضات التى تسمى بالبقع النجمية كما يندفع منها باستمرار ألسنة من اللهيب يصل امتداد بعضها إلى حوالى نصف ميل وقطر يصل إلى ستين ألف كيلو متر وبسرعة تصل إلى اثنى عشر ألف كيلو متر فى الدقيقة.. هذه الألسنة النارية يخرج منها جهد حرارى ومغناطيسى كبير يمد باقى أفراد المجموعة النجمية بالطاقة والضياء والجاذبية ولكن عندما يصل النجم إلى مرحلة الضعف والتكور فإنه يفقد تماسكه فيسقط ويهوى فى أغوار الفضاء ويأتى البيان القرآنى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [النجم: ١]، وهكذا تسقط نجوم السماء وتتهاوى فتموت وتنطفئ نهائيًا وهى التى كان لها ضياء وبهاء قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات: ٨] كما قال: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢] وأيضًا: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٨]

ولقد ذكرت النجوم الساهرة بعد تسبيح العباد لربهم فى قيام الليل وتدبر القدرة الإلهية فى الخلق والإبداع والقدرة قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ [الطور: ٤٩] والفضاء عالم يعج بالملائكة ونزول الأوامر ورفع الأعمال وصدق الله العظيم القائل: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ [الرعد: ٢].



عـالـم البحـار

البحار آية من الآيات الكبرى أودع الله تعالى فيها من الأسرار والأخبار مالا يمكن حصره أو وصفه وما يتم من اكتشافات عجيبة ومخلوقات غريبة هو لسانها الناطق والذاكر والمنبئ عن قدرة الله العلى الكبير وعظيم آلائه ومراداته قال ﷻ: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان: ٢٧].

وقال كذلك: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾[الكهف: ١٠٩] .

البحار تشغل ثلاثة أرباع الكرة الأرضية وهى أكثر اتساعا ومجالاً فى النصف الجنوبى من الكرة الأرضية ويوجد فى قاع البحر المالح تلال عظيمة مكونة من الملح وبمرور المياه عليها فإنها تذوب وتبقى متشبعة على الدوام.. فإن قيل: من أين حدثت تلك الثلوج المِلْحية تحت البحر؟ ولماذا لم تشاهد فوق الأرض القارة؟ فإنه لا يجد إلا أن يقول : سبحان الله.. فقاع البحر يختلف باختلاف الجهات فقد صادفوا جهات لم يُسبَر غورُها ويُظَنُّ أنها تبلغ من اثنى عشر ألف متر ومنه جهات قريبة القاع جدًا حتى إن البوارج ترتطم فى شعابها فتهلك ومن هنا يرى أن قاع البحر فى شكله الجملى مشابه لسطح الأرض تمامًا من حيث ودیانه وجباله مما يشاهد فيه من الجهات القريبة القاع فهى جباله وما يشاهد من الجهات البعيدة فهى وديانه، وقد تعلو جباله حتى تعلو سطحه فإن تلك الجزر التى تصادف فى وسط البحر ما هى إلا قمم تلك الجبال البحرية وماء البحر مذيب لمقدار كبير من الملح المعدنى فإنه يوجد منه فى اللتر الواحد خمسة وثلاثون جرامًا وثلاثة أرباع هذا القدر تكون من ملح بحرى وما بقى فقليل من: كلورود المانزيوم(١) والبوتاسيوم وأجناس مختلفة من برومورات ومن سلفات هذا التركيب يختلف بالنسبة للبحار الغير متصلة بالبحر الأعظم كبحر الخزر والبحر الميت أما

(١) دائرة المعارف (القرن العشرين) من ص ٤٧ مجلد ٢ .

بحر الأقيانوس فهى تكاد تكون واحدة، وفى البحار من صفوف المخلوقات وفنون الكائنات ما لا يتخيله العقل ولم يجسر أحد إلى اليوم أن يدعى حصر أصنافها لما يرى كل يوم من ظهور عجيبة من عجائبه التى لا تنضب كما لا تنضب مياهه ففيه من أول الميكروبات الحقيرة إلى الحيوانات الضخمة الهائلة التى لا يصادف مثلها على سطح الأرض.. وليس أمر هذه الكائنات قاصرًا على طول أجسامها بل هناك أمر أدعى للعجب وهو غرابة أشكالها وألوانها وتكوين أعضائها وقد أثبت العلماء أنه لا يوجد على الأرض حيوان لا يوجد له مثيل فى البحر حتى ذهب العالم (دومابيه) إلى أن أصل [1] الأحياء الأرضية أصلها من البحر وله فى ذلك أسانيد غريبة وخرافات أغرب.. ومن عجيب قدرة الله تعالى أنه عندما تقع الأرض والشمس والقمر فى مستوى واحد ففى هذه الحالة تتضافر الجاذبية الشمسية مع جاذبية القمر فى حدوث زيادة فى ارتفاع الماء عند المد وزيادة فى انخفاضه عن الجزر ويحدث ذلك مرتين فى الشهر العربى إحداهما فى منتصفه والأخرى عند نهايته – أى عندما يكون القمر بدرًا أو محاقا – وعندئذ يصل المد إلى أعلى مستوى له وينخفض الجزر إلى أدنى منسوب له ويسميان فى هذه الحالة (المد أو الجزر الربيعى) وعندما تدور الأرض حول الشمس ويدور القمر حول الأرض فإن قوى الجاذبية وقوة الطرد المركزية يتوازيان تمامًا وذلك عند مركز الجاذبية الأرضية وإن كانت المسطحات المائية الأقرب إلى القمر والشمس تسبب تفوقًا بسيطًا للجاذبية على قوة الطرد المركزية وينتج عن ذلك بطبيعة الحال ارتفاع مستوى الماء أو حدوث المد والجزر والذى يبلغ طول موجته تقريبًا نصف محيط الأرض وفترته اثنتا عشرة ساعة ويتحكم عمق الماء فى سرعة الموجة المدية عبر المحيط إلى جانب أن طولها وفترتها يكفيان لجعل المد والجزر فى شكل موجة منخفضة وتلعب الاختلافات الفصلية فى درجة الحرارة وكذلك الاختلاف فى درجة الملوحة دورها فى التذبذبات الواضحة فى مياه المحيطات فحجم كتلة ماء البحر يزداد مع ارتفاع درجة الحرارة كما أن انخفاض درجة الملوحة يقلل من الكثافة النوعية وهذه تؤدى إلى زيادة فى ارتفاع منسوب البحر وتوجد كذلك تباينات محلية فى الفارق المدِّىّ ترجع إلى شكل الساحل واندفاع المياه من الأنهار نحو البحر والمنشآت الهندسية على

---

(١) جغرافية البحار والمحيطات – د. محمد صبرى محسوب من ص ٧٧ طبعة ٢٠٠٢ .

السواحل مثل كاسرات الأمواج وحواجز الرمال وغيرها ويعرض الدمشقى [١] فى كتابه عند وصفه لمياه المسطحات المائية عموما والبحر الرومى خصوصًا قوله: ولهذا البحر الرومى مد وجزر مع امتلاء القمر بالنور ونقصانه منه (.. كما ذكر البكرى [٢] أن علة ما لا يظهر فيه مد ولا جزر من البحار هو بعدها عن مدار القمر ومسافته بعدًا كثيرًا) كما ذكر فى كتابه المسالك والممالك وربط إخوان الصفا [٣] بين حركة المد والجزر وحركة القمر والكواكب الأخرى إذ ذكروا قولهم: وأما علة مد وجذر البحار فى وقت طلوعات القمر ومغيبه دون غيرها من البحار فهى من أجل أن تلك البحار فى قرارها صخور صلبة فإذا أشرق القمر على ذلك البحر وصلت مطارح شعاعاته إلى تلك الصخور والأحجار التى فى قراراها ثم انعكست من هناك راجعة فسخنت تلك المياه وحميت ولطفت وطلبت مكانًا أوسع وارتفعت إلى فوق ودفع بعضها بعضًا إلى فوق وتموجت إلى سواحله وفاضت على سطوحها وأرجعت مياه تلك الأنهار التى كانت تنصبُّ إليها إلى خلف فما يزال ذلك دأبها ما دام القمر مرتفعًا إلى وتد السماء فإذا انتهى إلى هناك وأخذ ينحط سكن عند ذلك غليان تلك المياه وبردت وانضمت تلك الأجزاء وغلظت ورجعت إلى قرارها وجرت الأنهار على عادتها فلا يزال ذلك دأبها إلى أن يبلغ القمر تلك البحار الغربى منها ثم يبتدىء المد على مثل عادته وهو فى الأفق الشرقى ولا يزال دأبه حتى يبلغ القمر أفقه الشرقى من الرأس ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦، يس ٣٨].

كيف تكونت المحيطات؟ ومن أين أتى ماؤها؟

يقول علماء البحار: إنه بعد [٤] أن برد جو الأرض نسبيًا إلى الحد الذى سمح بتكثيف بخار الصهير الذى ملأ الجو خلال عصور طويلة من تراكم البخار فى الجو مما مكنه من

---

(١) شمس الدين الدمشقى – نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر – صـ١٣٩ ت ٧٢٧ هـ.

(٢) عبد الله يوسف الغنيم – مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى مطبعة المدنى صـ١٨٠.

(٣) مجلة المنهل (الإنسان وجغرافية المكان) العدد ٥٣٨ المجلد ٥٨ العام ٦٢ صـ١١٨.

(٤) المنهل – المرجع السابق – صـ٤٥.

الإسهام - بحجبه لأشعة الشمس - فى تبريد سطح وجو الأرض ومن ثم زيادة إمكانية التكثف أخذت الأمطار تتساقط على الكرة الأرضية بغزارة لم يحدث لها مثيل فى جميع الأحقاب والعصور وحدثت فيضانات واسعة عمت سطح الكرة الأرضية تكون على أثرها ويسببها أول محيط للأرض غطى اليابس جميعه بشكل كامل ثم أخذ الماء يتجمع ويستقر فى المنخفضات العظمى للأرض مكونًا بحارًا ومحيطات غطت آنذاك ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ولم يكن ماؤها صالحًا كما هو الآن بل كان حلوا ثم تملح بما تجلبه مياه الأنهار والسيول والفيضانات من أملاح اليابسة بالإضافة إلى ما يخرج من الأملاح الذائبة فى المحاليل المائية الساخنة المنبثقة من باطن الأرض بواسطة البراكين التى تثور فى قيعان البحار والمحيطات على مر العصور.

وهناك نظرية تقول: إن البخار الذى تختزنه الأرض فى باطنها يتسرب إلى السطح عبر مسام القشرة الأرضية ومع مرور العصور والأحقاب تكونت منه البحار والمحيطات وهذه كلها من آيات الله الكبرى.

أصل الماء فى القرآن الكريم:

فى القرآن الكريم آية تدل على أصل الماء الأول وذلك فى قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ [النازعات: ٣١] حيث ذهب المفسرون القدامى والمحدثون إلى أن الماء المقصود هنا هو ماء الأنهار والعيون والآبار يتفجر ويخرج من الأرض بالطريقة التى نعرفها، وذهب الطبرى إلى أن المعنى: فجر فيها الأنهار وأنبت فيها النبات وأورد عن الحسين أنه قال: سمعت أبا معاذ يقول: أخبرنا عبيد قال: سمعت الضحاك يقول فى قوله: (ومرعاها) ما خلق الله فيها من النبات، و (ماءها) ما فجر فيها من الأنهار.. وقال القرطبى: (أخرج منها): أى أخرج من الأرض (ماءها) العيون المتفجرة بالماء (ومرعاها) يعنى النبات الذى يرعى.. ويرى الفخر الرازى: أن المقصود بمائها فى الآية: عيونها المتفجرة بالماء ومرعاها رعيها.. وذهب ابن كثير إلى أبعد من ذلك فقال: عن ابن عباس فى معنى (دحاها)

فى قولـه تعـالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعـات: ٣٠] فـسر الـدحو أو الدحى بأن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار وجعل فيها الجبال والرمـال والـسيل والآكام.. والحق أن هذه الآية الكريمة وقعت ضمن آيات سابقة عليها ولاحقة بهـا وتـرتبط بها ارتباطًا وثيقًا إذ يقـول الله تعـالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: ٢٧: ٣٢].

فهى تتحدث عن خلق الظواهر الكونية والأرضية الكبرى كيف كان ذلك؟ وكيف بدأ؟ وليس الحديث عن أنهار تتفجر وعيون تنبع بل عن الماء كيف تكوَّن ومـن أيـن جـاء أصـلاً؟ وهذا واضح من خلال السياق الوارد فى الآيات من حيث خلق السماء وتكوين الليل والنهار بعد خلق الأرض ثم دحوها ورسوِّ الجبال وتثبيت الأرض مـن البراكـين والـزلازل فى هـذا السياق لا يتناسب الحديث عن الأنهار والعيون بينما الأرض لا زالـت غـير مـستقرة بجبالهـا وغير مدحوة أو ممهدة ثم إن تفجر الأنهار والعيون بالماء أمر على عظم وأهمية هذه الآية – أقل شأنًا من تكوين المحيطات والبحار التى تلف الكرة الأرضية وهى جزء من تكوينهـا الكبـير ككوكب يجيب عن ذلك ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه الطبرى فى تفسيره حول الآيـة الكريمـة: إن الله خلق السموات والأرض لما فرغ من السموات قبل أن يخلق أقوات الأرض فيهـا بعـد أن خلق السماء وأرسى الجبال – يعنـى بـذلك دحوهـا الأقـوات، ولم تكـن تـصلح أقـوات الأرض ونباتهـا إلا بالليـل والنهـار فـذلك قولـه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعـات: ٣٠] يقـول ابـن عبـاس رضي الله عنهما: ألم تـسمع أنـه قـال: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ [النازعات: ٣١]، وقد فهم المفسرون ومنهم الطبرى وابن كثير أنه رضي الله عنه يعنـى الأصـل والمـصدر الأول للـماء عـلى الكـرة الأرضـية بـشكل عـام.. ويـدل معنـى الدحو والدحى على ما نسميه الآن بزحزحة القارات وهذه الزحزحـة مـا هـى إلا التـشكيل

(بحركة الألواح) التى تفصلها الصدوع التى أشار القرآن إليها فى قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ [الطارق: ١٢] ، كما ورد فى دحو القارات وتحريكها بالتسوية أماكن مناسبة لمحيطات مقعرة ومكورة ومنبسطة أيضًا فى وقت واحد بدون أى تناقض أو تعارض واستقرت كذلك منذ آلاف الملايين من السنين فأصبحت منذ ذلك الحين محيطات وبحارًا وهذا كله يحقق قول الله تعالى على العموم:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

حركة الحياة مع البحار: عرض قرآنى:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ﴾ [المائدة: ٩٦].

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنعام: ٦٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: ٩٧].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: ٢٢].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢].

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤].

﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ [الإسراء: ٦٦].

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل: ٦٣].

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: ٣١].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾﴾ [الشورى: ٣٢].

﴿۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الجاثية: ١٢].

﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ ﴾ [الطور: ٦: ٨].

﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝٢٤ ﴾ [الرحمن: ٢٤].

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ ﴾ [فاطر: ١٢].

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣ ﴾ [الفرقان: ٥٣].

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ ﴾ [النمل: ٦١].

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ ﴾ [الرحمن: ١٩: ٢٠].

وهذه الآيات فيها إشارات تمس حياة الناس ومعايشهم وحركة حياتهم مما يظهر أهمية البحار والأنهار فى حياة البشر، كما أن القرآن الكريم رصد أيضًا من الآيات المتحدثة عن البحار ما له صلة بالتاريخ والأحداث الكونية من بدء الخلق إلى منتهاه مرورًا بأصحاب السفينة والطوفان الذى حدث فى عهد سيدنا نوح عليه السلام وارتباط ذلك بأحداث عظيمة أثرت فى الدعوة... وارتباط البحار بنهاية الكون وقيام الساعة وارد كذلك فى حنايا القرآن قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ ﴾ [التكوير: ٦] وقال أيضًا: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ ﴾ [الانفطار: ٣] فسبحان من له الخلق والأمر .



عـالـم الإنسـان

الإنسان: هو ذلك المخلوق المنوط به التكريم الإلهى والعناية الإلهية لأنه محل الفهم والعقل والتفاعل والخلافة فى الأرض.. كما أنه حامل رسالة الحق والذى أودع الله تعالى الإيمان فى قلبه فهو المكلف بالأوامر والنواهى والمأمور بالطاعة والعبادة قال الله تعالى:

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[الإسراء: ٧٠] وقال كذلك:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[الذاريات: ٥٦].

أطوار التاريخ وأصل الإنسان:

مما لا ريب فيه أن الإنسان منذ فجر التاريخ وهو يبحث عن حقيقته وكيف وجد وكيف تكوّن ونشأ؟ وجاء علماء النفس والاجتماع والأخلاق ليعلنوا أن الإنسان حيوان شهوة أو حيوان بطن وذهبوا كل مذهب للبحث عن الحلقات المفقودة فى الإنسان فحللوا الجماجم والعظام والبقايا المتناثرة فى أنحاء العالم القديم من جزر جاوة إلى كينيا [1] وروديسيا والصين ووجدوا هذه الجماجم والعظام التى يرجع تاريخها إلى ما يقرب من خمسة عشر مليونًا من الأعوام فماذا قالت تلك العظام والجماجم؟ لقد ظلت نظرية (دارون) فى أصل الأنواع قاعدة أساسية للعلم الحديث والفكر المادى حتى خيل للبعض أنها من مسلمات العلم التى لا سبيل إلى نقضها ولكن الأيام كشفت زيف النظرية وأثبتت تقدم العلم والحفريات الأثرية أن هذه الفرضية التى افترضها (دارون - لا مارك) وغيرهما كانت قابلة للخطأ وأن كل ما ترتب عليها من فكر علمى هو وهم وباطل وكانت هذه النظرية المادية التى قامت خلال هذه العصور الطويلة على نظرية (دارون) ترى أن الخليقة كلها من أصل واحد وأن الإنسان فرع من فصيلة الحيوان فى أرقى درجاته وهو القرد الآخذ فى التطور والتحضر فيما أطلق عليه (النشوء والارتقاء) وقد عارض الباحثون البيولوجيون هذا الافتراض وأعلن العلماء

---

(١) مقدمات العلوم والمناهج المجلد السابع من ص ٧٦ بقلم: أنور الجندى.. دار الأنصار .. الإيداع ١٩٨٦/٣٠٩١ .

(التجريبيون) فى صراحة تامة أنه لا علاقة للإنسان بالقرد لافتقار ذلك إلى البرهان الخاتم وأن الإنسان لم يظهر على الأرض مصادفة بل كان بمثابة هدف أخير من تنظيم الكون ولذلك ظهر مركبًا فى أكمل تقويم وهذا ما رآه رئيس المجمع الفرنسى (إجال بيفتو).. ،أعلن الدكتور (رونالدجونسان) أستاذ علم الأجناس البشرية قوله: إن العلماء يستطيعون الآن أن يقولوا بنسبة تسعة وتسعين فى المائة أن الإنسان سار منتصبًا على قدميه منذ بداية تاريخه الإنسانى منذ أكثر من ثلاثة ملايين سنة وقرر أن الإنسان لم ينحدر من سلالة مشتركة تطورت مع الوقت إنما كانت له سلالته الخاصة المستقلة.. لقد تآزرت أدلة العلم مع أدلة الدين والحق على تأكيد فساد نظرية (دارون) بشقيها وأن الإنسان خلق من جنس مستقل، يقول (أودن لويس): إن المؤمن يرى كل تطور نتيجة فعل القوة الإلهية في الطبيعة لا نتيجة تطور ذاتي وأن (دارون) وأتباعه خطر على الدين لأن مذهبه لا يعطى المقام اللازم للعزة الإلهية فى تطور الكون وأن فئات متعددة من الدارونيين معطلة تقول: إن الله نفسه من خلق الإنسان وأن أصل كل شىء كيس هلامى كان فى الماء ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾[الكهف: ٥] لقد عجز الإنسان أن يفهم نفسه بينما حاول أن يفهم الحياة والكون والعلوم والإنسان كما هو منذ خلق الله لم يتغير ولم يتطور ومازالت طبائعه وأخلاقه وقامته وشكله وحركته وكلامه ثابتة ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[غافر: ٨٥] لا ريب أن المحاولات [١] التى تتصل بالإنسان تاريخه ودينه ونفسيته وأخلاقه إنما تستهدف إحياء التراث الوثنى القديم كله وتعيد صياغته من جديد من أجل أن تصل إلى إبراز مفاهيم التلمود وقيم التوراة التى كتبها (عزرا) إبَّان السبى البابلى والتى استوعبت تراث آشور وبابل واليونان والرومان والبراهمة مما تحفل به أسفار العهد القديم وقد كشفت كل الدراسات الأصلية عن أن الأصول العامة لعلوم النفس والأخلاق والاجتماع والأنثربولوجيا ومقارنات الأديان والعنصرية كلها تستمد أصولها من هذا التراث

---

(١) مقدمات العلوم – المصدر السابق

اليهودى التلمودى الصهيونى والذى تأثر به البعض فى وقتنا المعاصر فى محاولة للخروج من الصمت الطويل بعد أن اندحرت الأفكار والنظريات المادية (البائدة) ليقولوا: إن البشر جميعا ينتمون[1] إلى نوع واحد ينسب إلى جنس واحد من أجناس عائلة حيوانية واحدة هو النوع العاقل من جنس الإنسان ولكنه يختلف عن الأنواع الحيوانية الأخرى فى أنه ليس مضطرًا للحياة فى بيئة واحدة بل هو يستطيع أن يلائم بين نفسه وبين مختلف البيئات الطبيعية من الأصقاع القطبية إلى الأقاليم الاستوائية الحارة، وأصحاب هذه الرؤية يخالطهم شعور بانتساب الإنسان إلى نوع واحد فى الأصل لكنه لم يكن مستقلا بذاته فهو فرع من هذا الأصل (الثابت المتغير) والذى انسلخ منه هذا النوع الحيوانى العاقل المسمى بالإنسان وهذا ليس ببعيد عن نظرية التطور الدارونية ففى تصور هؤلاء أن الأحياء كلها تشترك[2] فى أصل واحد هى الخلية الأولى التى ما زالت ترى مثالاً لها فى الأميبية فإذا صحت هذه النظرية وجب علينا أن نرى آثار الأحياء القديمة التى مر فيها تطور الإنسان من الخلية الأولى حتى صار بحالته الراهنة.. والعامل الوحيد لتغيير الحيوان وتطوره هو التغيير والتطور فى البيئة بحيث يستجيب الحيوان للتغيرات على توالى الألوف والملايين من السنين فتغيرت الأعضاء واتخذت وظائف جديدة ثم تراكمت التغيرات حتى ظهرت سلالات جديدة ثم أنواع جديدة أيضًا وقد ذهب أرسطو[3] أيضًا وبعض الأقدمين إلى أن الإنسان مملكة قائمة بنفسها بجانب ممالك الطبيعة الأخرى وأوجز (جوفرواسان هيلير) طبائع هذه الممالك فى هذه الجملة: (النبات حى والحيوان حى حساس والإنسان حساس مفكر) وهذا تدعيم للنظرية القائلة: بأن الإنسان مملكة قائمة بذاتها، فخاصة الإنسان تقوم على أمرين: أخلاقه وتدينه وصاحب هذه الجملة لم يفصل مع ذلك الإنسان عن بقية الحيوانات وأيده فى ذلك أيضًا العالم الفيزيولوجى (لينيه) الذى وضع الإنسان فى رتبة البريمات من القردة الأفريقية المسماة بـ (الشمبانزى) و (الغوريللا) و(الجيبون) **وهناك مذاهب أخرى خرجت عن دائرة الحيوانية المطلقة لأصل**

---

(١) علم الإنسان: فوزية رمضان أيوب - مكتبة الباب عدد ١٥ الإيداع ٤١٣٣/ ١٩٩٠م .

(٢) نظرية التطور وأصل الإنسان: سلامه موسى عدد ١٢ مطبعة التقدم صـ٧٢ - ١٨٥ .

(٣) دائرة معارف القرن العشرين من صـ١٠٧ ج١ .

الإنسان لنرى الآتى:

أولاً: أن الإنسان خلق بالاتفاق بأهواء النواميس الطبيعية وهذا زعم فاسد لأن الطبيعة ونواميسها والحقائق وأغوارها من صنع البارئ سبحانه.

ثانيًا: أن الإنسان مظهر مستقل من مظاهر الإبداع الإلهى خلقه الله مستقلا بنفسه لا مشتقا من حيوان سابق عليه.. والقائلون بهذا من جمهور المتدينين وبعض الطبائعيين.

ثالثًا: أن الإنسان ناشئ من حيوان وهذا رأى جمهور علماء الطبيعة وقد ثبت فساد ذلك.. وهذه من الفروض التى حاولوا بها التلبيس على العامة.

الرد على هذه الآراء والمذاهب:

المذهب الأول: مع فساده الظاهر إلا أنه تأكد هذا الفساد بوجود آثار حول هذه النظرية الوهمية، ومن العجيب أن عالم الطبيعة (أوكن) حاول أن يؤسسها على قواعد علمية سنة ١٨١٩ فزعم هذا العالم أن البحر هو المصدر الوحيد لجميع المخلوقات الأرضية ومنها الإنسان نفسه وقال: إن جنين الإنسان تولد فى البحر فى كيس محكم السد فعاش على هذه الحالة فى البحر مغتذيا من طريق الامتصاص ثم خرج من الكيس بعد سنتين حاصلاً على أعضاء تمكنه من تناول الغذاء بنفسه من الوسط المحيط به، ولكن رد على هذا الكلام بأنه: من العبث أن نضيع زمانًا أكثر من هذا فى النظر فى هذا الفرض والكلام ... دائرة المعارف – انتهى.

المذهب الثانى: ومؤداه أن الإنسان خلق خلقًا مستقلاً مستدلين على هذا الرأى بما يرونه من عدم رؤيتهم ترقيا جديدا فى خلال هذه الألوف المؤلفة من السنين من رتبة الحيوانية إلى الإنسانية ويقول أنصار هذا المذهب: ليس الإنسان وحده هو الذى خلق خلقا مستقلا بل جميع الحيوانات أيضًا بدليل وجودها جميعا على ما هى عليه بدون حدوث أى تبدل فى تركيبها فى خلال هذه القرون كلها رغما عن الأوساط المختلفة والفواعل الكثيرة العاملة عليها.. ويرى كثير من العلماء أن الإنسان خلق مستقلا غير مشتق وحجتهم فى ذلك أن الإنسان عالم وحده فى جميع أحواله فليس بين شعوبه من الفروق الجثمانية أو الروحية ما يشير إلى ترق

تدريجي بين آحاده من عالم أدنى من عالمه قال العلامة (بوفون): الإنسان الأبيض في أوربا والأسود في أفريقيا والأحمر في أمريكا هو الإنسان نفسه مصبوغا بلون إقليمه والرد على هذا أيضا هو: أن الإنسان من سلالة آدمية بشرية أصلية منحها الله من الكرامة ما به ارتقت وما إليه آلت من الخلافة وتقبل التكاليف.

المذهب الثالث: يتساءل أصحاب هذا المذهب قائلين: هل نشأ النوع الإنساني من زوجين اثنين ثم انتشر إلى سائر القارات أم من أزواج كثيرين؟ كما رأى البعض الآخر أن للنوع الإنساني أصولا كثيرة وقالوا: إن الإنسان أينما ذهب وجد أقوامًا يخالفونه جسمًا وعقلاً ومدارك أليس في هذا دليل على أصول النوع الإنساني وأنها كثيرة؟ والرد هنا: إذا كان الإنسان قد تولد من هذه الأنواع الكثيرة والمختلفة فلم لا تجرى السنة على جميع المخلوقات الحيوانية الأخرى لينالها من هذا التطور؟.

عناصر الإنسان من القرآن:

ذكر الله تعالى العناصر التي خلق منها آدم عليه السلام ونبه على أنه جعله إنسانا في سبع درجات وأشار إلى ذلك في مواضع مختلفة في القرآن الكريم حسب ما اقتضته الحكمة الإلهية وتمثلت هذه المراحل في:

الأولى: الخلق من التراب

الثانية: الخلق من الطين.

الثالثة: الخلق من الحمإ المسنون

الرابعة: الخلق من الطين اللازب.

الخامسة: الخلق من صلصال كالفخار

السادسة: الخلق من الماء الدافق.

السابعة: الخلق التام بنفخ الروح فيه.

عرض الآيات الدالة على ذلك:

أولاً: الدليل على الخلق من التراب: قال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾[آل عمران: ٥٩].

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الكهف: ٣٧].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج: ٥].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الروم: ٢٠].

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [فاطر: ١١].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [غافر: ٦٧].

﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ

أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الرعد: ٥].

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾
[المؤمنون: ٣٥].

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الصافات: ٥٣].

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ [ق: ٣].

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾
[النبأ: ٤٠].

ثانيًا: الدليل على الخلق من الطين: قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾[الأنعام: ٢] .

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [ص: ٧٦].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾[المؤمنون: ١٢: ١٣] .

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾
[السجدة: ٧] .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الإسراء: ٦١].

ثالثًا: الدليل على الخلق من الحمإ المسنون: قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن

صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحجر: ٢٦].

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحجر: ٢٨].

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحجر: ٣٣].

رابعًا: الدليل على الخلق من الطين اللازب: قال الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ ﴾ [الصافات: ١١].

خامسًا: الدليل على الخلق من صلصال كالفخار: قال الله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن: ١٤].

سادسًا: الدليل على الخلق من الماء الدافق: قال الله تعالى: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ ﴾ [الطارق: ٦: ٧].

سابعًا: الدليل على الخلق التام بنفخ الروح: قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٥].

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [السجدة: ٩].

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر:

٢٩].

وفى القرآن آيات أخرى تتحدث عن أطوار الخلق والأجنة قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ (٢) ﴾ [العلق: ٢].

وجماع ذلك كله قول عز من قائل: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ (٣) عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ (٤) ﴾ [الرحمن: ١: ٤] فسبحان من له الخلق والأمر..!!.





جدل حول مفهوم النبوة والرسالة

جدل حول مفهوم النبوة والرسالة[1]

الدلالة اللغوية للنبوة:

جاء فى لسان العرب (النبوة والنباوة) والنبى ما ارتفع من الأرض، والنبوة الشرُف المرتفع من الأرض، والنبى العلم من أعلام الأرض التى يهتدى بها، ومنه اشتقاق النبى، لأنه أرفع خلق الله، وذلك لأنه يهتدى به، قال الكسائى: النبى الطريق، والأنبياء طرق الهداية، وقال أبو معاذ النحوى: سمعت أعرابيا يقول: من يدلنى على النبى أى على الطريق، وقال الزجاج: القراءة المجمع عليها فى النبيين والأنبياء طرح الهمز، وقد همز جماعة من أهل المدينة جميع ما فى القرآن من هذا، واشتقاقه من نبأ وأنبأ أى خبر، قال: والأجود ترك الهمز[2].

وقال الراغب الأصبهانى: (والنبوة: سفارة بين الله وبين ذوى العقول من عباده لإزاحة علتهم فى أمر معادهم ومعاشهم والنبى لكونه منبئًا بما تسكن إليه العقول الذكية[3]).

ويبين البغدادى معنى النبى فى اللغة أيضًا فيقول: (النبى فى اللغة مهموز وغير مهموز فالمهوز مأخوذ من النبأ الذى هو الخبر، وغير المهموز يحتمل وجهين: أحدهما التخفيف بإسقاط همزته، والثانى أن يكون من النبوة التى هى الرفعة، وهى ما ارتفع من الأرض، وكذلك النبوة ما ارتفع من الأرض، ويقال نبأ الشىء إذا ارتفع، فالنبى على هذا هو الرفيع المنزلة عند الله تعالى[4]).

وعلى هذا فاللغة تعطينا أن النبى ما ارتفع بين البشر وهو أعلاهم وأميزهم، وبه يهتدى الخلق كما أنه هو الذى تميز وبلغ، وهو السفير بين الله والخلق.

---

(١) دراسات فى العقيدة (النبوات والسمعيات) أ.د/ فرج عبد البارى عطا الله أ.د/ محمد مصطفى الشناوى مكتبة الأزهر الحديثة طنطا ١٤٣٢هـ ٢٠٠٢م رقم الإيداع ٤٨٢٤ / ١٩٩٦.

(٢) ابن منظور: لسان العرب ج٦ ص ٤٣٣٣ دار المعارف بدون تاريخ.

(٣) المفردات فى غريب القرآن ص ٧٣٣ إعداد الدكتور محمد أحمد خلف الله الناشر مكتبة المصرية وانظر المعجم الوسيط ج٢ ص ٨٩٦ مجمع اللغة العربية دار المعارف.

(٤) أصول الدين ص١٥٣ – ١٥٤ دار الكتب العلمية بيروت.

المفهوم الاصطلاحى للنبوة:

والنبوة والرسالة هى إرسال الله تعالى الرسل والأنبياء إلى المكلفين من الثقلين ليبلغوهم عن الله تعالى شرائعه التى تؤدى إلى صلاح حالهم فى المعاش والمعاد، وهذه النبوة هى قول الله تعالى لمن اصطفاه من عباده أرسلناك وبعثناك وبلّغ عنا، ونحو ذلك...«[1]».

هل النبوة منحة أم اكتساب؟.

الحق الذى يدين به الجمهور من المسلمين أن النبوة منحة من الله يختص بها من يصطفيه من خلقه لا يرقى إليها عالم أو فيلسوف مهما فطر على جودة الفهم والتصور وقوة الذاكرة وحضور البديهة ومهما تعهد نفسه بالدراسات النظرية العميقة والتأملات العقلية الطويلة وتحلى بكل خلق حميد وتخلى عن كل أمر ذميم.

ذلك ما يصرح به الإمام الشهرستانى فى تعبيره عن مذهب أهل السنة والجماعة من المسلمين فى النبوة حيث يقول: (إن النبوة ليست صفة راجعة إلى النبى ولا درجة يبلغ إليها أحد بعلمه وكسبه ولا استعدادا يستحق به اتصالاً بالروحانيات بل رحمة يمن الله بها على من يشاء من عباده[2]).

غير أن الحكمة الإلهية اقتضت أن يتخير الله سبحانه لهذه المكرمة ويصطفى لتلك المنزلة أحد عباده يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٥] ويقول عز من قائل: ﴿ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ويذكر الإمام الشهرستانى مذهب أهل السنة فى هذا الصدد فيقول: (فكل من يصطفيهم من الخلق قولا بالرسالة والنبوة يصطفيهم من الخلق فعلا بكمال الفطرة ونقاء الجوهر وصفاء العنصر وطيب الأخلاق وكرم الأعراق فيرفعهم مرتبة حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة

---

(١) شرح المواقف ج ٨ ص٢١٨.

(٢) نهاية الإقدام فى علم الكلام ص٤٦٢.

وكملت قوته النفسانية وتهيأت لقبول الأسرار الإلهية بعث إليهم ملكا وأنزل عليهم كتابا(١).

بينما يذهب الفلاسفة إلى القول باكتساب النبوة ، وقد قال البيجورى بصدد النبوة وأنها ليست اكتسابا ما نصه: (النبوة لا يكتسبها العبد بمباشرة أسباب مخصوصة كملازمة الخلوة والعبادة وتناول الحلال كما زعمت الفلاسفة لعنهم الله تعالى والذى يذهب إليه المسلمون جميعًا أن النبوة خصيصة من الله لا يبلغ العبد أن يكتسبها) ثم يقول مبطلا رأى الفلاسفة: (ويلزم على قولهم باكتسابها تجويز نبى بعد سيدنا محمد أو معه وذلك مستلزم لتكذيب القرآن والسنة(٢) فقد قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وقال عليه الصلاة والسلام: (لا نبى بعدى)، وأجمعت الأمة على إبقائه على ظاهره).

وأكد هذا المعنى الآمدى بقوله: (ليست النبوة معنى يعود إلى ذات من ذاتيات النبى ولا على عرض من أعراضه، استحقه بكسبه وعمله ولا العلم بربه، فإن ذلك مما يثبت قبل النبوة ولا عمله بنبوته إذ العلم بالشيء غير الشيء: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ ﴾ [إبراهيم: ١١] فليست إلا موهبة من الله تعالى، ونعمة منه على عبده وهو قوله لمن اصطفاه واجتباه إنك رسولى ونبيى(٣)).

وبهذا نرى أن النبوة والرسالة منحة من الله تعالى وليست مكتسبة وقد جاءت النصوص القرآنية مؤكدة لهذا المعنى وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ ﴾ [الأنعام: ٨٩] .

---

(١) نهاية الاقدام للشهرستانى ص١٦٣.

(٢) شرح البيجورى على الجوهرة ص ١٥٠ – ١٥١ لشيخ الإسلام إبراهيم البيجورى طبع المعاهد الأزهرية.

(٣) غاية المرام فى علم الكلام ص٣٥٥ تحقيق الأستاذ حسن عبد اللطيف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

وقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ [الحج: ٧٥] .

وقوله: ﴿ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

حكم إرسال الرسل :

لا خلاف بين الفرق الإسلامية فى حدوث النبوة ووقوعها بالفعل، ولكن الخلاف فى حكم إرسال الرسل هل هو واجب أم لا؟ وللإجابة على هذا السؤال فلابد وأن نعرض لأهم الفرق الإسلامية وهى: -.

أولاً : المعتزلة:

ترى المعتزلة أن إرسال الرسل واجب على الله تعالى لأن فيه صلاحا للعباد، كما فيه لطفًا بهم، إذ يقربهم إلى الطاعة ويبعدهم عن المعصية، وذلك واجب على الله تعالى ثم نجد أن مفهوم الواجب عندهم هو: ما يستحق تاركه الذم، والواجب لا تختلف حقيقته باختلاف الفاعلين، فالحقائق لا تختلف فى الشاهد والغائب، وهذا يعنى أن حقيقة الواجب لا تختلف، فإن لم يثب الله تعالى الأنبياء والمؤمنين لكان كحال أحدنا إذا لم يفعل ما يجب عليه من رد الوديعة(١).

ويقصد المعتزلة بهذا الواجب ما تقضى به الحكمة، فما تقضى به الحكمة فى الفعل الإنسانى، نقضى به أيضا فى الفعل الإلهى، والغرض هو انتفاء القبح عن أفعاله تعالى، فالصفة الجامعة لكل أفعاله هى الحسن.

ويرى القاضى عبد الجبار أنه لا يجب على الله تعالى إلا ما أوجبه على نفسه بالتكليف، ومن التمكين والألطاف، وإثابة من يستحق الثواب وما أوجبه بفعل الآلام من الأعراض(٢).

---

(١) المغنى ج ١٤ ص ١٣ القاضى عبد الجبار.

(٢) المصدر السابق: ج١٤ ص ٥٧.

أى أن الواجب هو ما يقتضيه التكليف، ويمكن القول وفقا لهذا: أنه لا يجب على الله تعالى إلا ما أوجبه على نفسه إذ أنه هو الذى أوجب التكليف فلا موجب عليه تعالى. ويرى المعتزلة أن الله تعالى خلق الخلق لعلة، وهذه العلة لا ترجع إليه تعالى لغناه وعدم حاجته. بل ترجع إلى الخلق وهى منفعتهم، ولكى تتحقق منفعة الخلق لابد أن يقدرهم الله على فعل ما هو واجب، والله تعالى قد قدر عباده على فعل ما هو واجب وذلك عن طريق اللطف الإلهى، ومعنى اللطف هو ما يدعو إلى فعل الطاعة على وجه يقع اختيارها عنده أو أن يكون أولى أن يقع عنده[1].

ومن مظاهر اللطف الإلهى إرسال الله تعالى الرسل، إذ الإعلام بالتكليف يكون بإرسال الرسل، فإذا كان الله قد علم أن صلاحنا يتعلق بالشرعيات فلابد من أن يعرفنا إياها كى لا يكون مخلا بما هو واجب عليه، ومن العدل أن لا يخل بما هو واجب عليه.

يقول القاضى عبد الجبار معبرًا عن ذلك: (إنه قد تقرر فى عقل كل عاقل وجوب رفع الضرر عن النفس وثبت أيضًا أن ما يدعو إلى الواجب ويصرف عن القبيح فإنه واجب لا محالة، وما يصرف عن الواجب ويدعو إلى القبيح فهو قبيح لا محالة، إذا صح هذا وكنا نجوّز أن يكون فى الأفعال ما إذا فعلّناه كنا عند ذلك أقرب إلى أداء الواجبات واجتناب المقبحات وفيها ما إذا فعلناه كنا بالعكس من ذلك ولم يكن فى قوة العقل ما يعرف به ذلك ويفصل بين ما هو مصلحة ولطف وبين ما لا يكون كذلك فلابد من أن يعرفنا الله تعالى حال هذه الأفعال حتى لا يكون عائدًا بالنفس على غرضه بالتكليف، وإذا كنا لا يمكن تعريفنا ذلك إلا بأن يبعث إلينا رسولا مؤيدا بعلم معجز دل على صدقه فلابد من أن يفعل ذلك ولا يجوز له الإخلال به ولهذه الجملة قال مشايخنا: (إن البعثة متى حسنت وجبت[2]).

ومن هنا نرى المعتزلة قد اعتصموا فى الحكم بوجوب إرسال الرسل على القول بالحسن والقبح باعتبار أن الحسن والقبح عقليين فى نظرهم فكل فعل قرر العقل أنه حسن فهو

---

(١) مقالات الإسلاميين للأشعرى ص ٣١٨ ج ١.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ٥٦٤.

واجب، وكل فعل تقرر فى العقل أنه قبيح كان ممتنعًا وحيث حسنت النبوة فهى واجبة على الله تعالى).

ثانيًا : الأشاعرة:

ويرى الأشاعرة أن إرسال الرسل جائز وليس بواجب وذلك لا يجب على الله شىء يقول الإمام الباقلانى معبرًا عن رأى الأشاعرة: (ويجب أن يعلم أنه يجوز إرسال الرسل وبعض الأنبياء خلافا لما تدعيه البراهمة) ثم يدلل على ذلك قائلا: (إنه تعالى مالك الملك يفعل ما يشاء مع ما سبق من أنه ليس فى إرسال الرسل استحالة ولا خروج عن حقائق العقول،فدل على جواز ذلك[1]).

واحتج الأشاعرة بعدم الوجوب على الله تعالى استنادًا إلى أن مفهوم الواجب ما ينال تاركه ضررًا، إما عاجلا أو آجلا والضرر فى حقه تعالى محال[2]. لذا ليس واجبا عليه تعالى أن يرسل رسلا إلى خلقه لأنه تعالى لا يجب عليه شىء.

وقد رد الأشاعرة على المعتزلة قولهم بالحسن والقبح الفعليين وقالوا: إن الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع، وأنه تعالى خالق كل شىء ولا يجب عليه شىء فإن أعطانا فبمحض فضله وأن منعنا فبمحض عدله، ثم إن الوجوب على الله يشعر بالنقص وهو سبحانه وتعالى منزه عنه.

وقد بين الأشاعرة أن الحسن والقبح أمران إضافيان لا ذاتيان كما يزعم المعتزلة يقول الغزالى: (إنهما أمران إضافيان مختلفان بالأشخاص، ويختلف فى حق شخص واحد بالأحوال، ويختلف فى حال واحد بالأعراض فرب فعل يوافق الشخص من وجه ويخالفه من وجه فيكون حسنا من وجه قبيحا من وجه).

فمن لا ديانة له يستحسن الزنا بزوجة الغير ويعد الظفر بها نعمة ويستقبح فعل الذى يكشف عورته ويسميه غمازا قبيح الفعل والمتدين لا يسميه محسنًا حسن الفعل، وكل بحسب

---

(١) الإنصاف: ص٩٢-٩٣ للباقلانى تحقيق عماد الدين أحمد حيدر.

(٢) الاقتصاد فى الاعتقاد للغزالى ص ١٤٨ تحقيق الشيخ محمد مصطفى أبو العلا مكتبة الجندى.

غرضه يطلق اسم الحسن والقبيح بل يقتل ملك من الملوك فيستحسن فعل القاتل جميع أعدائه ويستقبحه جميع أوليائه(١).

فبهذا يتبين على القطع أن الحسن والقبح عبارتان عن الخلق كلهم عن أمرين إضافيين يختلفان بالإضافات عن صفات الذوات التى لا تختلف بالإضافة فلا جرم جاز أن يكون الشيء حسنًا فى حق زيد قبيحًا فى حق عمرو ولا يجوز أن يكون الشيء أسود فى حق زيد أبيض فى حق عمرو لما لم تكن الألوان من الأوصاف الإضافية(٢).

وإذا انتفى كون الحسن والقبح ذاتيين وصح أنهما إضافيان لم يبق إلا أنهما شرعيان على ما ذهب إليه أهل السنة، وكونهما شرعيين (يلزم منه منع جواز إطلاق القبح على أفعال الله تعالى لعدم وروده على لسان الشرع المنقول(٣)).

ولأن النبوة من أفعاله تعالى فلا تقبح فى حقه ولا تحسن بل هى منه تعالى محض لطف ورحمة وليس شيء من اللطف والرحمة بواجب على الله تعالى.

وتجدر الإشارة إلى أن الأشاعرة وإن كانوا لا يرون الوجوب العقلى للنبوة فهم لا يشكون فى حدوث النبوة بالفعل أو حتى يتطرق الشك عندهم إلى ذلك، فإرسال الرسل شيء ممكن للقدرة الإلهية، وأمر واقعى قد حصل لكن حصوله ليس اضطراريا أو واجبا، ولقد قال الشهر ستانى: (وصارت الأشعرية وجماعة أهل السنة إلى القول بجواز وجود النبوة عقلا ووقوعها فى الوجود عيانًا(٤)).

ثالثًا: الفلاسفة:

أما الفلاسفة فقد ذهبوا كالمعتزلة إلى وجوب النبوة والرسالة لأن النظام الأمثل الذى تقتضيه العناية الإلهية الأزلية لا يتم إلا بوجود النبى فالنبوة عندهم ضرورية بضرورة وجود

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص١٤٠.

(٢) المصدر السابق: ص١٤٠.

(٣) غاية المرام فى علم الكلام للآمدى تحقيق د. حسن الشافعى ص ٣١٩.

(٤) نهاية الأقدام فى علم الكلام ص ٤١٧.

النظام الأمثل فى العالم، الذى لا يليق بالعناية الإلهية أن تقبل بأقل منه فهى حاجة اجتماعية لا غنى للاجتماع البشرى عنها.

ذلك أن نوع الإنسان محتاج إلى اجتماع ومشاركة فى ضروريات حاجاته، وأنه لابد أن يكون الإنسان مكتفيا بآخر من نوعه، ويكون ذلك الآخر أيضًا مكتفيا به وبنظيره فيكون مثلا هذا ينقل إلى ذاك وذاك يخبر لهذا، وهذا يخيط للآخر، والآخر يتخذ الإبرة لهذا حتى إذا اجتمعوا كان أمرهم مكفيًا.

وإذا كان هذا ظاهرًا فلابد فى وجود الإنسان وبقائه من مشاركة ولا تتم المشاركة إلا بمعاملة، ولابد فى المعاملة من سنة وعدل ولابد للسنة والعدل من سانٍّ ومعدِّل، ولابد أن يكون هذا بحيث يجوز أن يخاطب الناس ويلزمهم السنة، ولابد من أن يكون هذا إنسانا، ولا يجوز أن يترك الناس وآراءهم فى ذلك، فيختلفون ويرى كل واحد منهم ماله عدلا، وما عليه ظلمًا، فالحاجة إلى هذا الإنسان فى: أيبقى نوع الإنسان ويتحصل وجوده أشد من الحاجة إلى إنبات الشعر على الأشفار والحاجبين ...... فلا يجوز أن تكون العناية الأولى تقتضى تلك المنافع ولا تقتضى هذه التى هى أسها.

فواجب إذن أن يوجد نبى وواجب أن يكون إنسانًا وواجب أن يكون له خصوصية ليست لسائر الناس، حتى يستشعر الناس، فيه أمرًا لا يوجد لهم فيتميز به عنهم فتكون له المعجزات التى أخبرنا بها»[1].

وبهذا نتبين أن حكم النبوة عند الفلاسفة المسلمين من الواجب العقلى على معنى أنه لم يكن فى العقل بد من حصول لطف المبدأ الأول وإفاضة الجود منه»[2].

والناظر فى قول الفلاسفة يجد عدة أمور منها:

١. إنهم يقولون كالمعتزلة بوجوب النبوة لكن هنا فرقًا في معنى الوجوب عند كل منهما فالمعتزلة يفسرون الوجوب بمعنى استحقاق تاركه الذم والعقاب، والفلاسفة يفسرونه بمعنى لزوم

---

(١) النجاة فى الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية لابن سينا ص٣٣٩ منشورات دار الآفاق الجديدة تحقيق د. ماجد فخرى.

(٢) غاية المرام فى علم الكلام للآمدى تحقيق د. حسن الشافعى ص ٣١٩.

الصدور وعدم التخلف.

٢. أن الوجوب بهذا المعنى عند الفلاسفة يؤول إلى الإيجاب بل هو الإيجاب حقيقة وما أشد من الوجوب لأن فيه سلب الاختيار تمامًا وعلى ذلك فالنبوة يلزم صدورها عن الله تعالى دون تخلف وكيفية هذا الصدور يتأتى من وجهين:

الأول: أن النبوة جود من المبدأ الأول والجود من أخص صفات ذاته عندهم وما بالذات لا يتخلف فالنبوة لازمة عن ذاته لا تتخلف عنها بحال.

الثانى: أن المبدأ الأول علة تامة والعلة التامة لا ينفك عنها معلولها أبدًا وحيث كان العالم هو معلول تلك العلة التامة فقد لزم صدوره عنها صدور المعلول عن علته ويلزم من صدور العالم وجود من يحفظ عليه نظامه الأمثل والأكمل فكانت النبوة والأنبياء.

ولسنا نجد فى الواقع ما يبرر قبول مثل هذا المذهب من الفلاسفة لمساسه الواضح بالكمال الإلهى المتمثل فى القدرة والإرادة والاختيار، وبيقين فإنه إذا تقرر بطلان الوجوب الذى قالت به المعتزلة فبطلان الإيجاب عند الفلاسفة من باب أولى.

فالحق تبارك وتعالى لا يجب عليه شىء لخلقه على أى معنى من معانى الوجوب، بل هو جل شأنه الفاعل القادر المريد المختار وقد ثبت له كل ذلك بالدليل.

والمذهب الحق هو مذهب أهل السنة وذلك لتوافر الأدلة على أن الله تعالى فاعل مختار لا يجب عليه فعل شىء ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان إرسال الرسل جائزًا فى حقه تعالى قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

خواص النبى عند الفلاسفة:

يرى الفلاسفة أن النبى المحتاج إليه البشر ليشرع لهم القوانين التى تحفظ العدل بين أفراد المجتمع هو الذى تجتمع فيه خواص ثلاث، لأنهم يرون أن الرسالة ليست بإرسال بل بوجود هذه الخواص وهى:

الخاصية الأولى: أن يكون له إطلاع على الغيبيات وهذا أمر ممكن فى رأيهم وذلك لأن نفسه القدسية لصفاء جوهرها تتصل بعقول الأفلاك التى هى المجردات العقلية والمبادئ

العالية عندهم وهى منتقشة بصور الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها وعندما تتصل نفس النبى الصافية بهذه العقول تنتقش فيها صور الكائنات الماضية والحاضرة والمستقبلة فيعرف الغيب، وهم يرون أن نفوس الأفلاك هى المدبرة فهى عالمة بكل ما سيكون من أحداث العالم، ولا يعوق النفس الإنسانية عن الاتصال بهذا العالم المجرد إلا انغماسها فى شهوات البدن ومطالب الجسد فإذا تخلصت النفس من الانغماس فى الشهوات انجذبت إلى العالم العلوى فتعرف ما فيه، ونفس النبى لصفاء جوهرها تكون كالمرآة المجلوة التى يحاذى بها شطر هذه الصور المنتقشة فى المجردات العقلية فتنطبع بكل ما فيها من معارف وأجبرت بذلك غيرها ممن لم يصل إلى هذه الدرجة[1].

الخاصية الثانية: أن يكون متميزًا بمخيلة قوية تعينه على تخيلات الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة ويستطيع بها أن يدرك كثيرًا من الأمور التى تقدم وقوعها بزمان طويل فيخبر عنها وكثيرًا من الأمور التى تكون فى الزمان المستقبل فينذر بها[2].

وتكون قوة المخيلة يتمثل للنبى الملائكة فى صورة أشخاص يخاطبون بكلام يكون وحيا يبلغه إلى الناس.

الخاصية الثالثة: وهى ظهور خوارق العادات ويعنون بها المعجزات فيقولون فى تفسيرها: (إنه لا يبعد أن يختص بعض النفوس الإنسانية بقوة هى مبدأ لأفعال غريبة بسبب مالها من الخصوصية الشخصية أو بسبب أمر طارئ عليها من غير اكتساب أو حاصل لها بالاكتساب).

فنفس التى تكون من القوة بحيث تطيعها هيولى العناصر والهيولى هى المادة الأولى غير المعينة التى تتكون فيها الجمادات والنباتات والحيوانات وهى التى تقبل الصور المفارقة فيحدث بتوجه نفس النبى إلى هيولى العناصر رياح وحرق وزلازل وغرق وهلاك أشخاص

---

(١) شرح المقاصد للتفتازانى ج ٢ ص ١٣٤ – ١٣٥ والمواقف ص ٣٣٧ ، ابن سينا بين الدين والفلسفة د. حمودة غرابة ص١٣٨ ، والسمعيات والنبوات د. محى الدين الصافى ص٢٢..

(٢) ابن سينا بين الدين والفلسفة ص ١٣٨ بالهامش.

ظالمة وخراب مدن فاسدة وانفجار المياه من الأحجار بل من أصابع اليد وليس ذلك ببعيد لأن علاقة النفس بالبدن علاقة تدبير وتصرف لا علاقة حلول وانطباع وكما تتصرف النفس فى بدنها يجوز أن تتصرف فى الأجسام الأخرى بالتحريك وفى هيولى العناصر حتى كأنها نفس لعالم العناصر فتطيعها فى التحول من شىء إلى شىء(١)".

نقض تلك الخواص:

أما عن الخاصية الأولى :

فنرى أن كلام الفلاسفة متناقض إذ كيف تحل المجردات بصور الكائنات المادية؟ ثم إن هذه الخاصية مبنية على نظرية العقول وهى نظرية خيالية ومنهارة من أساسها، ثم إنهم يجعلون النبى هو الذى يطلع على صور الكائنات المنتقشة فى عقول الأفلاك والحقيقة أن الله تعالى هو الذى يطلع النبى على ما أراد أن يطلعه عليه من الأمور الغيبية قال تعالى:

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن: ٢٦: ٢٧] .

وقد أعلن سيد الأنبياء أنه لا علم له بالغيب ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

أما عن الخاصية الثانية:

يقول صاحب المواقف: ومآل ما ذكروه فى هذه الخاصية يرجع إلى تخيل مالا وجود له فى الحقيقة كما للمرضى والمجانين، ولو كان أحدنا آمرا ناهيا من قبل نفسه بما يوافق المصلحة ويلائم العقل لم يكن نبيًا باتفاق من العقلاء فكيف يكون نبيا من كان أمره ونهيه يرجع إلى تخيلات لا أصل لها قطعا(٢)".

---

(١) السمعيات والنبوات ص ٢٣ وابن سينا ص ١٣٨ .

(٢) المواقف فى علم الكلام ص٣٣٨.

أما عن الخاصية الثالثة:

فنرى تفسيرهم للمعجزات على ذلك النحو يجعلها من الأمور المكتسبة التى تستطيع نفس النبى إذا بلغت من القوة هذه الدرجة بالاكتساب فيجعلون النبى كالمنوم المغناطيسى أو الساحر الذى يفعل أمورا معتادة إذا عرف أسبابها وأيضًا هم يعترفون بأن مادة العناصر مطبعة لغير النبى فلا تكون هذه خاصة له وأيضًا هم يجعلون المعجزة من فعل النبى ولكن المعجزة من فعل الله تعالى وليس للنبى فيها إلا أنه طلب حصولها من الله تعالى[1].

ويقول الفلاسفة:

إنه يجوز فى حق الأشخاص الكاملة الإمساك عن الغذاء مدة طويلة لانجذاب نفوسهم إلى جناب القدس بالكلية وعدم التفاتها إلى القوى الجسمانية التى بها الهضم والشهوة والتغذية فيجوز أن يمسك النبى عن الغذاء مدة معتادة وليس ذلك ببعيد فإن المريض يمسك عن الغذاء مدة طويلة لاشتغال الطبيعة بهضم الأخلاط الفاسدة عن تحليل المواد المحوجة إلى البدل فلا يحتاج المريض إلى البدل مدة طويلة فكذلك الأنبياء والعارفون على حد تعبير الفلاسفة فإن امتناعهم عن الغذاء مدة طويلة أولى وأقرب لاختصاصهم بأمر يقتضى الاستغناء عن الغذاء بسبب ترك القوى البدنية أفاعيلها لانشغالها بمتابعة النفس فى الأمور الروحانية، والفلاسفة بهذا يريدون أن يجعلوا الخوارق من الأمور المعتادة التى لها قانون وسبب[2].

وقد قرر سعد الدين التفتازانى: أن ما ذهب إليه أولئك الفلاسفة مخالف لما جاء به الدين وعلم منه بالضرورة، والواقع أن رأيهم هذا مبنى على القول بتجرد النفس الإنسانية وهو قول لم يستطيعوا إثباته بدليل يسلم من النقد كما أنه مبنى على فكرة العقول العشرة والنفوس الفلكية هذه الفكرة الواهية التى هى عبارة عن تلفيق لأفكار الإغريق وغيرهم ولا تعتمد على أى دليل بل هى نسج الخيال كما أن فى قولهم أن النبى أمر بتخيل أشخاص يخاطبونه ويسمون ذلك وحيا فى ذلك إهدار لقداسة النبوة وجعلها مبنية على الوهم والخيال.

---

(١) النبوات والسمعيات د. محى الدين الصافى ص٢٤.

(٢) المرجع السابق ص٢٤ وابن سينا بين الدين والفلسفة ص١٤٠ بالهامش.

كما أنه يفهم من مذهبهم أن النبوة أمر يمكن أن يكتسب إذ النفوس كلها مجردة وصالحه إلى درجة النبوة متى سلكت مسالكها التى حددوها[1].

التفاضل بين الأنبياء

هؤلاء الأنبياء ليسوا بدرجة واحدة من الفضل والمكانة بل بعضهم أفضل من بعض فقد جعلهم الله تعالى درجات وفى ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

يقول الإمام الرازى عند تفسيره لهذه الآية: (أجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض وعلى أن محمدًا ﷺ أفضل من الكل[2]) ويدل عليه حجج:

الحجة الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فلما كان رحمة لكل العالمين لزم أن يكون أفضل من كل العالمين.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشرح: ٤].

فقيل فيه : لأنه قرن ذكر محمد بذكره فى كلمة الشهادة وفى الأذان وفى التشهد ولم يكن سائر الأنبياء كذلك.

الحجة الثالثة: أنه تعالى قرن طاعته ﷺ بطاعته، فقال سبحانه: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠] وبيعته ببيعته فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا

(١) شرح المقاصد ج٢ ص ١٣٤ - ١٣٥.
(٢) مفاتيح الغيب ج ٣ ص ٥١٧.

يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠] وعزته بعزته فقال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ ﴾ [المنافقون: ٨] ورضاه برضاه فقال: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة: ٦٢] وإجابته بإجابته فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

الحجة الرابعة: أن الله تعالى أمر محمدًا ﷺ بأن يتحدى بكل سورة من القرآن فقال: ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾[البقرة: ٢٣] وأقصر السور سورة الكوثر وهى ثلاث آيات وكان الله يتحداهم بكل ثلاث آيات من القرآن، ولما كان القرآن ستة آلاف آية وكذا لزم أن لا يكون معجز القرآن معجزًا واحدًا بل يكون ألفى معجزة وأزيد.

وإذا ثبت هذا فنقول: إن الله سبحانه ذكر تشريف موسى بتسع آيات بينات فلأن يحصل التشريف لمحمد بهذه الآيات الكثيرة كان أولى.

الحجة الخامسة: أن معجزات رسولنا ﷺ أفضل من معجزات سائر الأنبياء فوجب أن يكون رسولنا أفضل من سائر الأنبياء.

الحجة السادسة: أنه تعالى بعدما حكى أحوال الأنبياء قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[الأنعام: ٩٠] فأمر محمدًا ﷺ بالاقتداء بمن قبله فإما أن يقال إنه كان مأمورًا بالاقتداء بهم فى أصول الدين وهو غير جائز لأنه تقليد فى فروع الدين وهو غير جائز لأن شرعه نسخ سائر الشرائع، فلم يبق إلا أن يكون المراد محاسن الأخلاق، فكأنه سبحانه قال: (إنا أطلعناك على أحوالهم وسيرهم فاختر أنت منها أجودها وأحسنها وكن مقتديا بهم فى كلها)، وهذا يقتضى أنه اجتمع فيه من الخصال المرضية ما كان متفرقا فيهم، فوجب أن يكون أفضل منهم[1].

---

(١) التفسير الكبير للرازى ج ٣ ص ٥١٧ - ٥١٨.

الحجة السابعة: قوله ﷺ : (آدم ومن دونه تحت لوائى يوم القيامة[1]) وذلك يدل على أنه أفضل من آدم ومن كل أولاده، وقال ﷺ : (لا يدخل الجنة أحد من النبيين حتى أدخلها أنا ولا يدخلها أحد من الأمم حتى تدخلها أمتى) وروى أنس أنه قال: قال رسول الله ﷺ : (أنا أول الناس خروجا إذ ابعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد بيدى وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر)[2] وعن أبى هريرة عنه قال: قال ﷺ : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع مشفع) [3]وعن ابن عباس رضي الله عنهما : (أنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح لى فأدخلها فيدخلها معى فقراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر[4]).

وقد أشار القاضى عياض فى كتابه (الشفا) إلى منزع لطيف من القرآن الكريم فى أفضلية الرسول على سائر الرسل الكرام وبيان أنه أشرفهم وأفضلهم وذلك لأن الله تعالى قد خاطب الرسل وناداهم بأسمائهم فقال عز من قائل، فى شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[الصافات: ١٠٥] .

وقال فى حق نوح عليه السلام: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾[هود: ٤٨] وقال فى نداء موسى: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل عن أبى نضرة ص ٢٨١ - ٢٨٢ ج ١ دار صادر.

(٢) رواه مسلم كتاب الفضائل باب تفضيل نبينا محمد ﷺ على جميع الخلائق ص ١٧٨٢ ج ٤ حديث رقم ٢٢٧٨ طبعة الحلبى.

(٣) صحيح : رواه مسلم رقم (٦٠٧٩) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (١٤٠٦) ، انظر مشكاة المصابيح حديث رقم (٥٧٤١) .

(٤) شرح السنة للبغوى كتاب الفضائل باب فضل سيد الأولين والآخرين محمد صلوات الله وسلامه عليه ص٢٠٣ المكتب الإسلامى الطبعة الثانية..

عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقال مخاطبا عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة: ١١٦].

وهكذا بقية الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ناداهم بأسمائهم التى سموا بها إلا خاتم الرسل ﷺ فقد خاطبه الله تعالى بوصف النبوة أو الرسالة إظهارًا لعظيم قدره وجلال فضله فقال عز من قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤] ولا نجد فى كتاب الله آية فيها خطاب للنبى ﷺ باسمه الصريح مثل ما جاء فى خطاب الأنبياء وإنما كل الآيات الكريمة تخاطبه بلفظ النبوة وليس فى الآيات الكريمة آية واحد تقول يا محمد وهذا من ألطف الإشارات إلى عظيم قدره ﷺ وإلى أنه أفضل الرسل على الإطلاق[1].

وإذا تقرر من دليل القرآن والأحاديث الثابتة وإجماع الأمة كونه ﷺ أكرم البشر وأفضل الأنبياء فما معنى الأحاديث الواردة بنهيه عن التفضيل؟ وذلك مثل قوله ﷺ: (**لا تخيروا بين الأنبياء**)[2]، وقوله ﷺ: (**لا تفضلوا بين الأنبياء**) وقوله: (**ما ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى**)[3] أى لا تقولوا فلان خير من فلان ولا فلان أفضل من فلان.

(١) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ج١ ص ٤٥ - ٤٦.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى رقم (٦٩١٦)، ومسلم رقم (٦٣٠٥).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى رقم (٣٣٩٥)، ومسلم رقم (٤٣، ٦٣١).

وقد ذكر القاضي عياض والإمام القرطبي: أن للعلماء في هذه الأحاديث التي رواها الأئمة الثقات تأويلات!.

أحدها: أن نهيه عن التفضيل كان قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل.

ثانيها: أنه قال: (**لا تخيروني على موسى**) (١) على طريق التواضع، كما قال أبو بكر: إني وليت عليكم ولست بخيركم، وكذلك معنى قوله: لا يقل أحد أنا خير من يونس بن متى على معنى التواضع، وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ [القلم: ٤٨] ما يدل على أن رسول الله ﷺ أفضل منه؛ لأن الله تعالى يقول: ولا تكن مثله فدل على أن قوله: (**ولا تفضلوني عليه**) من طريق التواضع.

ثالثها: إنما نهى عن الخوض في ذلك، لأن الخوض في ذلك ذريعة على الجدال، وذلك يؤدي إلى أن يذكر منهم مالا ينبغي أن يذكر ويقل احترامهم عند المماراة فلا يقال النبي أفضل من الأنبياء كلهم ولا من فلان ولا خير، ولما يتوهم من النقص في المفضول.

رابعها: أن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة والرسالة فأن الأنبياء فيها على حد واحد إذ هي شيء واحد لا يتفاضل وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصوصيات والكرامات والرتب والألطاف والمعجزات والمتباينات، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل وإنما التفاضل بأمور زائدة عليها، ولذلك منهم رسل ومنهم أولو عزم ومنهم من رفع مكانا عليا، ومنهم من أوتي الحكمة صبيا ومنهم من اتخذ خليلا، ومنهم من كلمه الله ورفع بعضهم درجات قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٦٤٠٨)، ومسلم رقم (٦٣٠٢).

ثم قال القرطبى: وهذا قول حسن فإنه جمع بين الآى والأحاديث من غير نسخ والقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منح من الفضائل وأعطى من الوسائل وقد أشار ابن عباس إلى هذا قال: إن الله فضل محمدًا على الأنبياء وعلى أهل السماء فقالوا: بم يا ابن عباس فضله على أهل السماء؟ فقال: أن الله تعالى قال: ﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٩] وقال لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفتح: ١: ٢].

قالوا فما فضله على الأنبياء؟ قال قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[إبراهيم: ٤] وقال الله ﷻ لمحمد ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ: ٢٨] فأرسله إلى الجن والإنس[1].

عصمة الأنبياء

شبهات والرد عليها حول عصمة الأنبياء:

قد يقول قائل: كيف يكون الأنبياء معصومين مع أن القرآن قد أثبت لبعضهم بعض المخالفات ونسب إلى البعض الآخر منهم الذنب والمعصية.

وقد أجاب المفسرون والمتكلمون على تلك الشبهات بما يلى:

أولاً: ما ورد فى حق آدم عليه السلام:

قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [طه: ١٢١].

قال الرازى: (إن آدم حال ما صدرت عنه هذه الأشياء ما كان نبيًا وأن هذه الواقعة

---

(١) الشفا للقاضى عياض ص١٧٢ ج١ ص٢٢٦ – ٢٢٧ وتفسير القرطبى: الجامع لأحكام القرآن ج٢ ص١١٨٥ – ١١٨٧.

كانت قبل النبوة وأن الله تعالى قبل توبته وشرفه بالنبوة والرسالة ...[1]).

وقال العلامة القرطبي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾[الأعراف: ١٩] واختلفوا كيف أكل منها مع الوعيد المقترن بالقرب وهو قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ فقال قوم: أكلا من غير التي أشير إليها، فلم يتأولا النهي واقعا على جميع جنسها، وقيل: أكلها ناسيا وهو الصحيح، لإخبار الله تعالى في كتابه العزيز بذلك حتما وجزمًا فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥] ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة معارفهم وعلو منازلهم مالا يلزم غيرهم كان تشاغله عن تذكر النهي تضييعًا صار به عاصيا أي مخالفًا[2].

وذكر البيضاوى أن الجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الأول: أنه لم يكن نبيًا حينئذ والمُدَّعِي مطالب بالبيان.

والثاني: أن النهي للتنزيه، وإنما سمى ظالمًا وخاسرًا لأنه ظلم نفسه وخسر حظه بتركه الأولى له.

والثالث: أنه فعله ناسيًا لقوله: ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ولكنه عوتب بترك التحفظ عن أسباب النسيان[3].

وقيل: إن آدم عليه السلام لما نهي عن الأكل من الشجرة بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ ظن أن المراد عين هذه الشجرة لا جنسها فأكل من شجرة أخرى من جنسها فخالف الأمر،

---

(١) تفسير الرازي ج ٢٢ ص ١٢٨.
(٢) تفسير القرطبي ج١ ص ٣٤٨ - ٣٤٩.
(٣) تفسير البيضاوي ج١ ص ٥١.

وكان ذلك باجتهاد منه لا عن سابق تعمد وإصرار المخالفة[1].

وبهذا يتضح لنا من أقوال هؤلاء المفسرين أن آدم عليه السلام لم يتعمد مخالفة أمر الله عز وجل بأكله من الشجرة، وإنما أكل منها متأولاً بطريق الاجتهاد أو ناسيًا لأمر الله تبارك وتعالى فعاقبه الله بإخراجه من الجنة وأنزله إلى الأرض، وذلك لحكمة إلهية سابقة فلا يجوز لنا أن نرميه بالعصيان مع أن ما وقع منه لم يكن إلا بسبب النسيان فتاب الله عليه فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه : ١٢٢] .

ثانيًا: ما ورد فى حق نوح عليه السلام :

ومن هذه النصوص الكريمة قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ [هود: ٤٥: ٤٦].

فنوح عليه السلام لم يرتكب هنا معصية أو إثما وإنما دعا الله أن ينجى ولده وأخذته الشفقة والعاطفة الأبوية، لكونه بشرًا، وأبًا رحيمًا فطلب من الله أن يلهم ولده الإيمان لينجو من الغرق، فأخبره الله تعالى بأنه قد سبقت له الشقاوة وأنه من الهالكين.

وقد بين الإمام الرازى الزلة التى صدرت من نوح عليه السلام فى هذا المقام فقال: (إن أمة نوح عليه السلام كانوا على ثلاثة أقسام كافر يظهر كفره، ومؤمن يعلم إيمانه، وجمع من المنافقين، وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة، وحكم الكافرين هو الغرق، وأما أهل النفاق فبقى حكمهما مخفيًا، وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمنًا وكانت الشفقة المفرطة التى تكون من الأب فى حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافرًا، بل على الوجوه الصحيحة، فلما رآه بمعزل عن القوم طلب منه أن يدخل السفينة فقال: ﴿سَـَٔاوِىٓ

---

(١) شرح المقاصد ج٢ ص ١٤٤.

إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾وذلك لا يدل على كفره لجواز أن يكون قد ظن أن الصعود على الجبل يجرى مجرى الركوب فى السفينة فى أنه يصونه عن الغرق، وقول نوح﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ لا يدل على أنه عليه السلام كان يقرر عند ابنه أنه لا ينفعه إلا الإيمان والعمل الصالح، وهذا أيضًا لا يدل على أنه علم من ابنه أنه كان كافرًا فعند هذه الحالة قد بقى فى قلبه ظن أن ذلك الابن مؤمن فطلب من الله تعالى تخليصه بطريق من الطرق، إما بأن يمكنه من دخول السفينة، وإما أن يحفظه على قمة الجبل، فعند ذلك أخبره الله بأنه منافق، وأنه ليس من أهل دينه فالزلة الصادرة عن نوح عليه السلام أنه لم يستقص فى تعريف ما يدل على نفاقه وكفره، بل اجتهد فى ذلك وكان يظن أنه مؤمن مع أنه قد أخطأ فى ذلك الاجتهاد لأنه كان كافرا فلم يصدر عنه إلا الخطأ فى هذا الاجتهاد فثبت بما ذكرنا أن الصادر عن نوح عليه السلام ما كان من باب الكبائر وإنما هو من باب الخطإ فى الاجتهاد"[1].

وقال الشيخ أبو منصور عند تفسير هذه الآية الكريمة: وقد كان عهد نوح عليه السلام أن ابنه على دينه لأنه كان ينافق وإلا لا يحتمل أن يقول: ابنى من أهلى ويسأله - تعالى - نجاته وقد سبق منه النهى عن سؤال مثله بقوله جل وعلا: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود: ٣٧] فكان نوح يسأله عن الظاهر الذى عنده كما كان أهل النفاق يظهرون الموافقة لنبينا ﷺ ويضمرون الخلاف له، ولم يعلم بذلك حتى أطلعه الله عليه وقوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود: ٤٦] أى من الذين وعدتهم بالنجاة وهم المؤمنون حقيقة فى السر والعلن"[2].

وقال صاحب المقاصد: وأما الشبهة فى حق نوح عليه السلام فهو أن قوله تعالى:﴿ قَالَ

---

(١) تفسير الرازى ص ٦ ج ١٨.

(٢) العلامة أبى بركات أحمد بن محمود: مدارك التنزيل وحقائق التنزيل ج٢ ص ٣٣٥ بهامش من تفسير الخازن.

﴿ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ ﴾ تكذيب له فى قوله: ﴿ إِنَّ ٱبۡنِى مِنۡ أَهۡلِى ﴾ وللجواب عن ذلك: أنه ليس للتكذيب بل للتنبيه على أن المراد بالأهل هم الصالحون والمعنى: أنه ليس من أهل دينك[1].

ثالثًا: ما ورد فى حق إبراهيم عليه السلام :

أما ما جاء بشأن إبراهيم عليه السلام أنه كذب فى قوله تعالى حكاية عنه ﴿ هَـٰذَا رَبِّى ﴾ مشيرًا إلى النجم، وفى قوله تعالى حكاية عنه أيضًا: ﴿ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ ﴾ وقوله: ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ والجواب عن الآية الأولى يقول الرازى فى تفسيره: (إن إبراهيم عليه السلام لم يقل هذا ربى على سبيل الإخبار، بل الغرض منه أنه كان يناظر عبدة الكواكب، وكان مذهبهم أن الكواكب ربهم وإلههم، فذكر إبراهيم عليه السلام ذلك القول الذى قالوه بلفظهم وعبارتهم حتى يرجع إليه فيبطله أو أنه قال: ﴿ هَـٰذَا رَبِّى ﴾ فى زعمكم واعتقادكم[2]).

كما بين القرطبى أن إبراهيم عليه السلام إنما قال ﴿ هَـٰذَا رَبِّى ﴾ لتقرير الحجة على قومه فأظهر موافقتهم: فلما أفل النجم قرر الحجة وقال: ما تغير لا يجوز أن يكون ربًا... وقيل: هو على معنى الاستفهام والتوبيخ، منكرًا لفعلهم والمعنى: أهذا ربى أو مثل هذا يكون ربًا[3]؟.

وذكر صاحب المواقف فى قوله: ﴿ هَـٰذَا رَبِّى ﴾ أن هذا الكلام صدر عن إبراهيم عليه السلام قبل تمام النظر فى معرفة الله وكم بينه وبين النبوة إذ لا يتصور النبوة إلا بعد تمام ذلك النظر أو أنه قال هذا الكلام على سبيل الفرض إرشادًا للصائبة إذ حاصل ما ذكره: أن

---

(١) شرح المقاصد ج٢ ص ١٤٤.

(٢) تفسير الرازى ج١٣ ص ٥٢.

(٣) تفسير القرطبى ص ٢٥٤٩ ج ٣.

الكواكب لو كانت أربابًا كما تزعمون لزم أن يكون الرب متغيرًا آفلا وهذا باطل[١].

وبهذا نرى أن إبراهيم عليه السلام لم يكذب فى قوله: ﴿ هَٰذَا رَبِّى ﴾ وإنما قال ذلك مجاراة للخصم فى زعمه الباطل، ثم يكرّ عليه بالحجة ليفسد قوله ويبطل زعمه.

ولهذا فقد ذكر البيضاوى: وقوله ﴿ هَٰذَا رَبِّى ﴾ على سبيل الوضع فإن المستدل على فساد قول يحكيه على ما يقوله الخصم ثم يكر عليه لإفساده[٢].

ويقول (ابن العربى) فى أحكام القرآن: (والذى أوتيه إبراهيم من العلم بالحجة بظهور دلالة التوحيد وبيان عصمة إبراهيم عن الجهل بالله تعالى والشك فيه، والإخبار أن ما جرى بينه وبين قومه إنما كان احتجاجًا ولم يكن اعتقادًا[٣]) .

فمن ظن بإبراهيم الشك أو اعتقد أنه عبد الشمس أو الكواكب فقد جانب الحق وأخطأ الفهم وجهل صفات الأنبياء والمرسلين.... وكيف يكون ذلك والله جل جلاله قد أعطاه العقل وكمال الرشد قبل النبوة فقال: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥١].

ونجد الرازى أيضًا عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الصافات: ٨٨: ٨٩] يقول: [إن إبراهيم عليه السلام نظر نظرة فى النجوم فى أوقات الليل والنهار، وكانت تأتيه سقامة كالحمى فى بعض ساعات الليل والنهار فنظر ليعرف هل هى فى تلك الساعة وقال: ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ فجعله عذرًا فى تخلفه عن العيد الذى لهم وكان صادقًا فيما قال لأن السقم كان يأتيه فى ذلك الوقت[٤]].

---

(١) شرح المواقف ج ٨ ص ٢٧٠.
(٢) تفسير البيضاوى ج١ ص ٣١٧.
(٣) أبو بكر العربى: أحكام القرآن ج٢ ص ٧٣٢.
(٤) تفسير الرازى ص ١٤٧ ج ٢٦.

أن إبراهيم عليه السلام قد احتال للبقاء وعدم الخروج مع القوم فى عيدهم وذلك كى يتمكن من تكسير هذه الأصنام التى يعبدها قومه مع أنها لا تضر ولا تنفع فى السماء على عادتهم حيث كانوا نجامين وأوهمهم أن النجوم تدل على أنه سيسقم غدًا فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أى سأمرض إن خرجت معكم، وهذا ليس كذبا.

وذلك كما ذكر الحافظ ابن كثير أن هذا ليس من باب الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله - حاشا وكلا - وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزًا، وإنما هو من المعاريض فى الكلام لقصد شرعى دينى كما جاء فى الحديث: (**إن فى المعاريض لمندوحه عن الكذب**[1]).

وذكر صاحب المواقف: (أن النظر فى النجوم ليستدل بها على توحيد الله وكمال قدرته من أعظم الطاعات، وأما ترتيب الحكم بالسقم على النظر فلعل الله تعالى أخبره بأنه إذا طلع النجم الفلانى فإنه يمرض[2]).

وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ ليس بكذب، وذلك لأن إبراهيم عليه السلام لم يكن قصده أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من إلزامهم وتبكيتهم[3].

وقد أشار صاحب المواقف: (أن هذا من قبيل الإسناد إلى السبب فإن حامله على الكسر زيادة تعظيم لذلك الكبير[4]).

فليس إذن فى كلام سيدنا إبراهيم عليه السلام ما يدل على تعمد الكذب الذى يخل بعصمة الأنبياء، وإنما هو نوع من التعريض المباح والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

---

(١) تفسير ابن كثير ج٤ ص ١٣.

(٢) شرح المواقف ج٨ ص ٢٧١.

(٣) تفسير الرازى ج٢٢ ص ١٨٥.

(٤) شرح المواقف ج ٨ ص ٢٧١.

رابعًا: ما ورد فى حق يوسف عليه السلام:

وهو الهمُّ المشار إليه فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ [يوسف: ٢٤] وجعل السقاية فى رحل أخيه ورضاه بسجود أبويه واخوته له.

والجواب عن هذا الهمِّ نرى الرازى يقول: (إن يوسف عليه السلام كان بريئًا عن العمل الباطل والهمِّ المحرم، وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين وبه نقول وعنه نذبّ، فإن الدلائل قد دلت على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا يلتفت إلى ما نقله بعض المفسرين عن الأئمة المتقدمين، فإن الأنبياء عليهم السلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة استعظموها واتبعوها بإظهار الندامة والتوبة والاستغفار كما ذكر عن آدم عليه السلام فى قوله: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٣] وقال فى حق داود عليه السلام: ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص: ٢٤] وأما يوسف عليه السلام فلم يحك عنه شيئًا من ذلك فى هذه الواقعة لأنه لو صدر منه شيء لأتبعه بالتوبة والاستغفار ولو أتى بالتوبة لحكى الله ذلك عنه فى كتابه كما ذكر عن غيره من الأنبياء، وحيث لم يحك عنه شيئًا علمنا أنه ما صدرت عنه فى هذه الواقعة ذنب ولا معصية[1].

ثم يبين الرازى الأدلة على براءة يوسف عليه السلام قائلاً: (ويدل على ذلك أيضا أن كل من كان له تعلق بتلك الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام عما نسب إليه، واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف والمرأة وزوجها، والنسوة والشهود، ورب العالمين شهد ببراءته عن الذنب، أما بيان أن يوسف ادعى البراءة مما نسب إليه فهو قوله عليه السلام: ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ [يوسف: ٢٦] وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ

(١) تفسير الرازي جـ١٨ ص ١١٨ - ١١٩

مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٣٣] وأما بيان أن المرأة اعترفت بذلك فلأنها قالت للنسوة: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف: ٣٢] وأيضا قالت: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يوسف: ٥١] وأما بيان أن زوج المرأة اعترف بذلك فهو قوله: ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يوسف: ٢٨: ٢٩] وأما بيان الشهود فقوله تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يوسف: ٢٦].

وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف: ٢٤] ومن كان كذلك فليس للشيطان عليه سلطان بدليل قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر: ٣٩: ٤٠].

فأقر بأنه لا يمكنه إغراء المخلَصين ويوسف من المخلصين لقولة تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ فكان هذا إقرار من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريق الهدى[1].

ثم يقول الرازي: (وعند هذا نقول لهؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة إن كانوا من أتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته، ولعلهم يقولون: كنا في أول الأمر

---

(١) تفسير الرازي ج١٨ ص ١١٩.

تلامذة إبليس إلى أن تخرجنا عليه فزدنا عليه فى السفاهة).

كما قال الخوارزمى:

وكنت امرأ من جند إبليس فارتقى ... بى الدهر حتى صار إبليس من جندى

فثبت بهذه الدلائل أن يوسف عليه السلام برئ عما يقوله هؤلاء الجهال[1].

وقد مال كثير من المفسرين إلى تفسير الهمّ بميل النفس أو الطبع كما قال البيضاوى وغيره: إنها قصدت مخالفته وقصد مخالفتها، والهمُّ بالشىء قصده والعزم عليه والمراد بهمه عليه السلام ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختيارى وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل عن الله تعالى من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهمّ أو مشارفة الهمّ[2].

وقد وضح الإمام القرطبى أنه جرى من يوسف همٌّ وكان ذلك طبع من غير تصميم للعقد على الفعل وما كان من هذا القبيل لا يؤاخذ به العبد، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد، وتناول الطعام اللذيذ، فإذا لم يأكل ولم يشرب ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بها هجس فى النفس، والبرهان صرفه عن هذا الهمّ حتى لم يصر عزمًا مصممًا[3].

وقال شارح المقاصد: (إن هذا الهمُّ هو الميلان المذكور فى الطبيعة البشرية لا الهمُّ بالمعصية والقصد إليها[4]).

ثم ذكر أنه لا دلالة هنا على العزم والقصد إلى المعصية، ولهذا ورد فى هذا المقام من الثناء على يوسف من غير أن تقع عليه زلة أو يذكر له استغفار وتوبة، وأما جعل السقاية فى رحل

---

(١) المصدر السابق ج١٨ ص ١٢٠.
(٢) تفسير البيضاوى ج١ ص ٤٩٢.
(٣) تفسير القرطبى ج٤ ص ٣٤٨٩.
(٤) شرح المقاصد ج٢ ص ١٤٤.

أخيه فقد كان بإذنه ورضاه، والسجدة كانت عندهم تحية وتكرمة(١).

وذكر الرازى والقرطبى عند تفسير قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف: ٧٠] أنه عليه السلام لما أظهر لأخيه أنه يوسف قال له: إنى أريد أن أحبسك ههنا ولا سبيل إليه إلا بهذه الحيلة فإن رضيت بها فالأمر لك فرضى بأن يقال فى حقه ذلك، وعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام فخرج عن كونه ذنبًا(٢).

وقال الرازى عند تفسير قوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ أن ذلك السجود كان سجودًا للشكر، فالمسجود له هو الله تعالى إلا أن ذلك السجود إنما كان لأجله، والدليل على صحة هذا التأويل أن قوله: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ [يوسف: ١٠٠] مشعر بأنهم صعدوا ذلك السرير ثم سجدوا له، ولو أنهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير لأن ذلك أدخل فى التواضع(٣).

فقد وضح لنا الرازى فى هذا النص أن السجود كان للشكر، وأن المسجود له هو الله تعالى، وإنما كان ذلك السجود لأجل وجود يوسف عليه السلام.

وقال القرطبى فى تفسيره لنفس الآية السابقة: (أجمع المفسرون أن ذلك السجود على أى وجه كان إنما كان تحية لا عبادة، وقال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة(٤)).

وقد بين الحافظ ابن كثير أن هذا السجود كان سائغًا فى شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام فحرم فى هذه الملة

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص ١٤٤.
(٢) تفسير الرازى ج١٨ ص ١٨٣ - وتفسير القرطبى ج ٥ ص ٣٥٦٣، ٣٥٦٤.
(٣) تفسير الرازى ج١٨ ص٢١٦.
(٤) تفسير القرطبى ج ٥ ص ٣٦٠٠.

وجعل السجود مختصًا بجانب الرب سبحانه وتعالى[1].

خامسًا: ما ورد فى حق الرسول ﷺ :

وذلك مثل قولـه تعـالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح: ١: ٢].

قال الرازى فى الجواب عن ذلك: (إنه من وجوه أحدها: المراد ذنب المؤمنين، ثانيها: المراد ترك الأفضل، ثالثها: الصغائر فإنها جائزة على الأنبياء بالسهو والعمد وهو يصونهم عن العجب، رابعها: العصمة[2]).

وقال أبو السعود: (ومعنى الآية ليغفر الله جميع ما فرط من ترك الأَوْلى وتسميته ذنبًا بالنظر إلى منصبه الجليل[3]).

وقد أشار إلى ذلك سعد الدين التفتازانى قائلا: (وهذا محمول على ترك الأَوْلى والأفضل...[4]).

وأيضًا ما ورد فى حق الرسول ﷺ من أنه أذنب قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [عبس: ١: ٢] فقد تمسك بهذه الآية من زعم أن المعصية تقع من الأنبياء وأن العصمة غير واجبة لهم، وهذا خطأ فى الفهم وعدم إدراك للمعنى الصحيح، ومن سبب نزول الآية يتضح أن الرسول ﷺ لم يرتكب معصية، وإنما خالف الأَوْلى فنبهه الله تعالى إلى الأكمل والأفضل.

---

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٤٩١.

(٢) تفسير الرازى ج٢٨ ص ٧٨.

(٣) تفسير أبى السعود ج ٢٨ ص ٧٨.

(٤) شرح المقاصد ج ص١٤٥.

فقد روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: [بينا رسول الله ﷺ يناجى عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب، وكان يتصدى لهم كثيرًا، ويحرص عليهم أن يؤمنوا فأقبل إليه رجل أعمى يقال له (عبد الله بن أم مكتوم) يمشى وهو يناجيهم فجعل عبد الله يستقرئ النبى ﷺ آية من القرآن، وقال: يا رسول الله علمنى مما علمك الله فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس فى وجهه وتولى، وكره كلامه وأقبل على الآخرين فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ الآيات فلما نزل فيه ما نزل كرمه رسول الله وكلمه وقال له: هل لك حاجة فى شيء؟(١)].

فنرى من سبب نزول الآية أن الرسول ﷺ كان مشغولا مع رؤساء قريش، وكان يحرص على دعوتهم لأنهم إذا أسلموا أسلم بإسلامهم الناس، وقد جاءه الأعمى فى وقت كان مشغولا فيه فترك إجابته لما هو فى نظره أهم وأعظم، فعاتبه الله على هذا وبين له ما هو الأفضل والأحسن.

قال الرازى: (القائلون بصدور الذنب عن الأنبياء تمسكوا بهذه الآية وقالوا: لما عاتبه الله فى ذلك الفعل دل على أن ذلك الفعل كان معصية وهذا بعيد فإنا قد بينا أن ذلك كان هو الواجب المتعين، إلا بحسب هذا الاعتبار الواحد وهو أنه يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء، وذلك غير لائق بصلابة الرسول ﷺ وإذا كان كذلك كان ذلك جاريًا مجرى ترك الاحتياط وترك الفضل فلم يكن ذلك ذنبًا البتة(٢)).

وأجاب ابن حزم بقوله: وأما قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ الآيات فإنه كان عليه السلام قد جلس إليه بعض عظماء قريش، ورجا إسلامهم وعلم أنهم لو أسلموا لأسلم بإسلامهم ناس كثيرون وأظهر الدين، وعلم أن هذا الأعمى الذى يسأله عن أشياء من أمور الدين لا يفوته وهو حاضر معه، فاشتغل عنه عليه السلام بما خاف فوته من عظيم الخير، عما لا يخاف فوته، وهذا

---

(١) تفسير الطبرى ج٣٠ ص ٣٣ وتفسير ابن كثير ج٤ ص ٤٧٠ - ٤٧١.

(٢) تفسير الرازى ج٣١ ص ٥٦.

غاية فى النظر فى الدين والاجتهاد فى نصرة القرآن فى ظاهر الأمر، ونهاية التقرب إلى الله الذى لو فعله اليوم منا فاعل لأجر، فعاتبه الله تعالى إذ كان الأوْلى عند الله أن يُقبل على ذلك الأعمى الفاضل البر التقى، ويترك أولئك المعاندين[1] .

وهكذا تبطل مزاعم المفترين أمام الحجج الدامغة والبراهين الساطعة التى تدل على عصمة الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .



(١) ابن حزم الفصل فى الملل والنحل ج٤ ص ١٨ .





الإعجاز العددى

(دراسة)







الإعجاز العـــددى

إن النظرة المتأنية فى معانى الآيات الكريمة وما تحتوى عليه من إعجاز يأخذ بالألباب وتعجز الأفئدة عن إدراك ما حوته حروف الكلمات أو كلمات الآيات.. فقد أدرك المفسرون أن هناك بعدا غير مدرك من أسرار القرآن الكريم وأنه من لدن حكيم عليم وأنه ليس من صنع بشر وأن سيد البشر ﷺ أدرك منه ما لم يدركه سواه فإنه عليه نزل، وبأذنيه سمع تلاوته من روح القدس فحفظه وتلاه وشرحه للصحابة وأفهمهم ما استطاعت أفئدتهم إدراكه والإلمام بأحكامه ولن يستطيع الإنسان مهما دار بفكره أن يحصر ما حوته الآيات الكريمة من إعجاز فى معانيها أو عددها وتحار الأفئدة حول ذلك الإعجاز العددى [1] فى آيات الذكر الحكيم ومهما حاول المحاولون إدراك هذا السر الأعظم فى ورود الآيات وما تحمله من عظات ومكنون سر إلهى فسيظل هذا السر فى كتاب مكنون إلى يوم الدين.. والعد: الإحصاء.. والمعدود مأخوذ من العدد.. وفى القرآن الكريم آيات تحتوى على ألفاظ وكلمات معينة يلحظ من عرضها أنها تحتوى على أعداد تحمل أسرارًا وأمورًا تخفى على البشر وكل لفظ فى موضعه وفى محتواه يظهر سرا من هذه الأسرار يقدر الله لنا فهمه على قدر ما تتحمله عقولنا وتستريح له أفئدتنا.. ولكل سر منها ظاهر وباطن وخفى وجلى عام وخاص فضلا عن أن تكرار هذه الألفاظ والكلمات يزداد وضوحا وبلاغة كلما أمعن الإنسان فيه النظر بحيث لا يشعر هذا التكرار بأى ملل أو زيادة لأنه فى سياق الآية تفسير لها ومعين على فهمها.

نماذج عددية من القرآن الكريم:

ذكرت فى القرآن ألفاظ مكررة مذكرة ومؤنثة، معرفة ومنكرة مفردة ومثناة .. وجمع وذلك فى كثير من آيات القرآن كما أسلفنا نذكر منها على سبيل المثال ما يأتى [2]:

١- لفظ (يوم) ذكر فى القرآن الكريم (٤٠٤) مرة.

٢- لفظ (شهر) ذكر فى القرآن الكريم (٢١) مرة.

---

(١) وهو المسمى بعلم الفواصل.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: محمد فؤاد عبد الباقى - دار الحديث.

٣- لفظ (سُنَّة) ذكر فى القرآن الكريم (١٣) مرة.

٤- لفظ (الصلاة) ذكر فى القرآن الكريم (٩٩) مرة.

٥- لفظ (الزكاة) ذكر فى القرآن الكريم (٣٢) مرة.

٦- لفظ (الحج) ذكر فى القرآن الكريم (١٢) مرة.

٧- لفظ (الجنة) ذكر فى القرآن الكريم (١٤٧) مرة.

٨- لفظ (النار) ذكر فى القرآن الكريم (١٤٥) مرة.

٩- لفظ (الثواب) ذكر فى القرآن الكريم (١٦) مرة.

١٠- لفظ (العقاب) ذكر فى القرآن الكريم (٢٠) مرة.

١١- لفظ (الذكر) ذكر فى القرآن الكريم (٢٦١) مرة.

١٢- لفظ (الشكر) ذكر فى القرآن الكريم (٧٥) مرة.

١٣- لفظ (الصدق) ذكر فى القرآن الكريم (١٥٥) مرة.

١٤- لفظ (الكذب) ذكر فى القرآن الكريم (٢٨٢) مرة.

١٥- لفظ (الصلاح) ذكر فى القرآن الكريم (١٨٠) مرة.

١٦- لفظ (الفساد) ذكر فى القرآن الكريم (٥٠) مرة.

١٧- لفظ (الخير) ذكر فى القرآن الكريم (١٨٨) مرة.

١٨- لفظ (الشر) ذكر فى القرآن الكريم (٣١) مرة.

١٩- لفظ (القلب) ذكر فى القرآن الكريم (١٣٢) مرة.

٢٠- لفظ (النفس) ذكر فى القرآن الكريم (٢٩٨) مرة.

وكل لفظة فى مكانها تعطى معنى جديدا وملمحا فريدا وموقعا مُلِحًّا وسبحان من هذا كلامه ونظامه، فالقرآن لا يخلَق على كثرة الرد ولا تنتهى عجائبه!! والباحث فى آيات القرآن كذلك يجد الآيات التى تشير إلى الأعداد بعامة والعدد بخاصة سوف يرى مدى الإعجاز الكامن من خلف كل عدد ومعدود وارتباط الأعداد الوثيق بحكم شتى وجواهر عديدة

وهذا عرض عام لهذه الآيات المباركة:

قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ [مريم: ٩٤] ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج: ٤٧] ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ [السجدة: ٥] ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾ [مريم: ٨٤] ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ ﴾ [الهمزة: ٢] ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ ﴾ [يونس: ٥] ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإسراء: ١٢] ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٢: ١١٣] ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الكهف: ١١] ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجن: ٢٤] ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الجن: ٢٨] ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ ﴾ [البقرة: ١٨٤] ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة: ٣٦] ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [الكهف: ٢٢] ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [المدثر: ٣١] ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [هود: ١٠٤] ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة: ٨٠] ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ [هود: ٨] ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ [يوسف: ٢٠] ﴿ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

آيات وأرقام: قال الله تعالى:

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ ﴾ [النساء: ٣].

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الكهف: ٢٥].

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الكهف: ٢٢].

﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٧].

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ [السجدة: ٥].

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [فاطر: ١].

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الحاقة: ٧].

﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحاقة: ١٧].

﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾ [المعارج: ٤].

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المدثر: ٣٠].

الأعداد نشأة وتاريخاً.

خلال مئات الآلاف من السنين كان يجرى التعبير عن الأعداد بالكلام قبل الشروع فى كتابتها وحتى الأعداد المكتوبة فإنها مرت بمرحلتين مختلفتين من مراحل التطور ومن الناحية التاريخية فإن كل مجموعة متقدمة من الأعداد المكتوبة مثل الأعداد البابلية أو الصينية أو

المصرية أو اليونانية أو الرومانية أو الهندوسية سبقها أو عاصرها مجموعة أكثر بدائية كان يستعملها الناس العاديون للمقايضة أو لأغراض أخرى ، ويبتدئ التمثيل الرمزى للأعداد بأسلوب غير مكتوب باستعمال أساليب مثل الإشارات الجسدية أو الأشياء التى يراد تعدادها أو بإحداث خدوش باستخدام الأصابع أو علامات على الأرض أو فى الرمل أو بصفوف من العصيات أو بأكوام من الأصداف والخرز.. وفى الحالات النادرة التى كان يضع فيها الناس العاديون سجلات دائمة للعدد فان أعدادهم هذه كانت عادة تسير على الخط التجميعى نفسه فكلما كان يجرى إضافة.. حصاة إلى كوم من أكوام الحصيات مقابل كل إضافة جديدة للعدد وكان يجرى إضافة نقطة أو خط أو خدش إلى حساب المكتوب.. ولما كانت الأنظمة (المعقدة) للأعداد المكتوبة ظلت غير مستعملة فى الحسابات اليومية ردحا من الزمان فان كثيرا منها كان بعيدا عن الحياة العملية على الرغم من عدم تعرض مستعملها للعقاب أنها لم تكن أدوات العلم بل أدوات البيان والبلاغة ومن الممكن صياغة المسألة بسرعة ففى حال الحسابات تكون الرموز العددية البسيطة أسهل استعمالا من الرموز المعقدة وهكذا فكلما كانت الأعداد المكتوبة أبسط ازدادت قابليتها لإجراء أعمال حسابية معقدة للحسابات الأكثر تطورا فإن الأعداد التى تستند إلى حروف من الأبجدية أو التى تستعمل الحروف الأولى من الكلمات كانت تعتمد على تجمعات من الرموز كما هى الحال فى الأعداد المصرية المنقوشة على الحجارة مما كان يخلط بينها وبين الكلمات تعليميات أو بين بعضها بعضا أو بين علامات عشوائية على المادة المكتوبة عليها. كالخدوش على الحجر أو اللطخات على ورق البردى.

.. العرب والعدد:

كانت بغداد وقرطبة الخلافتان العربيتان مشرقا ومغربا وكان الشرق هو المرسل والغرب هو المستقبل ومع دخول الإسلام تحمس المسلمون لنشر رسالة الدين الجديد وكانوا شغوفين باستيعاب وتطوير ونقل الحضارة والعلوم من جميع البلاد التى وقعت تحت سيطرتهم وبما تعلموه ودرسوه من الحضارات القديمة كالمصرية والهندية والبابلية وأسسوا علوما جديدة مثل الجبر والكيمياء وعلم المثلثات ، وقد أدى ذلك فيما بعد إلى ظهور توابع فى علوم عدة حتى ظهر أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمى الذى ألف علم الحساب الذى ترجمه

الغرب وأدخلوه فى علومهم وبذلك أدخلت الأعداد العربية إلى الغرب وولدت عملية قادت إلى استخدام الأرقام العربية التسعة مع رمز الصفر كما اهتم الخوارزمى كذلك بالمناحى النظرية للجبر باعتباره علم المعادلات وقد جعلت الأرقام والخوارزميات العربية الحساب بسيطا يمكن معه الاستغناء عن الأدوات المساعدة مثل المعداد والعمل مباشرة بالأعداد ذاتها.. ولم تتمكن مع ذلك الأعداد المكتوبة بالحروف الأبجدية غير العملية رغم الاستعانة بالورق والقلم والحبر من التلاؤم بيسر مع الحسابات السهلة واستبعدت من هذه الحسابات حسابات المجاميع المعقدة. وعرف العرب أن القيمة الحقيقية لكل رقم لا يمكن أن تعرف إلا بدمج قيمته الأساسية بقيمته المكانية التى يوضحها موقع الرقم فى العدد وتعرف القيمة المكانية بعدِّ الأرقام من اليمين إلى اليسار لتمثل المراتب بدئا من اليمين الآحاد فالعشرات فالمئات الخ.. وعرف بعد ذلك حساب الجُمَّل وهى الأرقام الأبجدية العربية على هذا النحو:

آحاد: ا - ب - ج - د - هـ - و - ز - ح - ط.

عشرات: ى - ك - ل - م - ن - س - ع - ف - ص.

مئات: ق - ر - ش - ت - ث - خ - ذ - ض - ظ.

آلاف: غ..

واستخدام هذه الحروف للدلالة على الأرقام العربية كما أن بعض العلماء استخدموها فى (المنظومات العلمية) كالإمام الشاطبى رحمه الله فى علم (عد الآى) شرح ناظمة الزهر.

جدول يوضح الأعداد بالحروف والأرقام: (حساب الجُمَّل)

الحرف	أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	آحاد
الرقم	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	
الحرف	ى	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	عشرات
الرقم	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	
الحرف	ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	مئات

الرقم	١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	
الحرف	غ									آلاف
الرقم	١٠٠٠					--------				

..ولقد ساهمت هذه الحروف (العددية) فى إفساح المجال أمام العلماء لابتكار العلوم وتوظيف الحروف واستخدامها لتسهيل البحث العلمى بغيه التوصل إلى الحقائق العلمية والتى يستحيل رصدها وتمييزها إلا من هذا الطريق. ولقد برع فى هذا المجال الإمام الشاطبى – كما ذكرنا فى عرضه لعلم الفواصل (عد الآى) ومنظومته الفريدة وأبياته المنتقاة من حيث الأدب واللغة والبلاغة المسماة (ناظمة الزهر) والتى قام بشرحها وبيانها المغفور له الشيخ عبد الفتاح عبد الغنى القاضى رحمه الله.

مقتطفات من الناظمة: قال رحمه الله:

هم بحروف الذكر مع كلماته ... وآياته أثروا بأعدادها الكثر
وهاموا بعقد الآى فى صلواتهم ... لحض رسول الله فى حفظها المثر
وقد صح عنه أن إحراز آية ... لأفضل من كوما[1] من الإبل
وقد صح فى السبع المثاني وغيرها ... من العد والتعيين مالاح كالفجر
ولما رأى الحفاظ أسلافهم عنوا ... بها دونوها عن أولى الفضل والبر

وقال أيضًا:

وما بدؤه حرف التهجِّى فآية ... لكوف سوى ذى را وطسَ
وما تأت آيات الطوال وغيرها ... على قِصَرٍ إلا لما جاء مع قَصْرِ

وقال:

وليست رءوس الآى خافية على ... ذكىٍّ بها يهتم فى غالب الأمر
وكل توالٍ فى الجميع قياسه ... بآخر حرف أو بما قبله فادر

(١) قصرت للضرورة- والأصل: كَوْمَاء وهى الناقة السمينة

وقال:

كما العالمين الـدين بعـد الـرحيم — تعـين عظـيم يؤمنـون بـلا كـذْر
سجى والـضحى تـرضى فـآوى — كبذْ والبلدْ يولد مع الصمد الـبرِّ

وأخـــيرًا: نبَّه الناظم إلى ترتيب علماء عد الآى فيما يلى:

جعلـت المـدينى أولا ثـم آخـرًا — ومك إلى شامِ وكوفٍ إلى بصرى

وأقدم[1] كلام عثر عليه فى هذا العلم – الفواصل – هو من حديث أم سلمة هند بنت سهيل المخزومية ت ٦٢هـ ويكشف أن المسلمين وقعوا فى شىء من الحيرة عندما تصدوا لإبانة مواضع انتهاء الآيات بسبب أنواع الوقف المتعددة.. فقد روى أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت: (كان يقطِّع قراءته آية آية) وعقَّب الجعفرى على هذا بقوله: ما وقف عليه السلام عليه دائما تحققنا أنه فاصلة.. وما وصله دائما تحققنا أنه ليس بفاصلة، وما وقف عليه مرة ووصله أخرى احتمل الوقف أن يكون لتعريفها أو لتعريف الوقف التام أو للاستراحة... واحتمل الوصل أن يكون غير فاصلة أو فاصلة وصلها لتقدم تعريفها ووصفه ب (التوقيفى) كما أنه وصف (القياس) بقوله: (وما ألحق من المحتمل غير المنصوص عليه بالمنصوص – لمناسب – وقال: ولا محذور فى ذلك لأنه لا زيادة فيه ولا نقصان وإنما غايته أنه محل فصل أو وصل والوقف على كل كلمة جائز ووصل القرآن جائز..) انتهى كلامه.

ومعلوم أن طرق معرفة الفواصل أربعة:

الأول: مساواة الآية لما قبلها وما بعدها طولاً وقصرًا.

الثانى: مشاكلة الفاصلة لغيرها مما هو معها فى السورة فى الحرف الأخير منها أو فيما قبله...

الثالث: الاتفاق على عدِّ نظائرها فى القرآن.

الرابع: انقطاع الكلام عندها.

(١) الفواصل: دكتور حسين نصار مكتبة مصر – الطبعة الأولى ١٩٩٩ صـ٩ وما بعدها

وأقدم تسمية للفواصل جاءت على لسان الخليل بن أحمد الفراهيدى ت ١٧٠ هـ فى قوله: سجع الرَّجل إذا نطق بكلام له فواصل كقوافى الشعر من غير وزن كما قيل: لصها بطل، وتمرها دقل إن كثر الجيش بها جاعوا، وإن قلُّوا ضاعوا.

وأطلق عليها يحيى بن زياد الفراء ت٢٠٧ ؟ هـ أربعة أسماء هى: الفواصل ، رءوس الآى ، آخر الآية ، آخر وأواخر الحروف ، وقال السبكى ت ٧٦٣ هـ إنها سميت بذلك أخذا من قول الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ [فصلت: ٣].

كما أرجع الزركشى ت٧٩٤ التسمية إلى أنها ينفصل عندها الكلامان وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها – وعنده –: القافية أخص من الفاصلة إذ كل قافية فاصلة وليست كل فاصلة قافية ويمتنع استعمال القافية فى القرآن.. كما أن الفاصلة لا تطلق فى الشعر لأنها صفة لكتاب الله فلا تتعداه.. وربط ابن خلدون بين الفواصل وبين قوله تعالى: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٧].

علماء العدد: هم ستة فى ترتيب الناظمة كما يلى:

المدنى الأول.. المدنى الأخير.. المكى.. الشامى.. الكوفى.. البصرى.. وهذه أسانيدهم:

١) **المدنى الأول**: هو ما يرويه نافع عن شيخيه – أبى جعفر يزيد بن القعقاع – وشيبة بن نصاح.

٢) **المدنى الأخير**: هو ما يرويه إسماعيل بن جعفر عن يزيد وشيبة بواسطة نقله عن سليمان بن جماز.

٣) **المكى**: هو ما رواه الإمام الدانى بسنده إلى عبد الله بن كثير القارئ عن مجاهد بن جبير عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ .

٤) **الشامى**: هو ما رواه يحيى الذمارى عن عبد الله بن عامر اليحصبى عن أبى الدرداء عن عثمان بن عفان رضي الله عنه .

٥) **الكوفى**: هو ما رواه حمزة وسفيان عن علىٍّ بن أبى طالب رضي الله عنه بواسطة ثقات ذوى

علم وخبرة.

٦) **البصرى:** هو ما يرويه عطاء بن يسار وعاصم الجحدرى وهو بواسطة أيوب بن المتوكل.

عدد آى القرآن إجمالا عند كلٍ منهم:

المدنى الأول: ٦٢١٧ – ٦٢١٤.

المدنى الأخير: ٦٢١٤.

المكى: ٦٢١٠.

الشامى: ٦٢٢٦ – ٦٢٣٢.

الكوفى: ٦٢٣٦.

البصرى: ٦٢٠٤.

وأضيف العدد الحمصى المنسوب إلى شريح بن يزيد الحضرمى إلى الشامى.

قواعد فى العدد

القاعدة الأولى:

فى اسم الفاعل المشتق [1] من العدد، له استعمالان:

أحدهما : أن يراد به واحد من ذلك العدد فلهذا يضاف للعدد الموافق له نحو: رابع أربعة وخامس خمسة –وليس فيه إلا الإضافة خلافا لثعلب فإنه أجاز: ثالث ثلاثة – بالتنوين قال تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [التوبة: ٤٠] وهذا القسم لا يجوز إطلاقًا فى حق الله تعالى – ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة: ٧٣].

ثانيهما : أن يكون بمعنى التصيير وهذا يضاف إلى العدد المخالف له فى اللفظ بشرط أن

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ج ٤ ص١١٧: ١٢٠ مكتبة التراث.

يكون أنقص منه بواحد كقولك: ثالث اثنين - ورابع ثلاثة - وخامس أربعة - كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] أى يصيرهم بعلمه وإحاطته أربعة وخمسة فإن قيل: كيف بدأ بالثلاث وهلا جاء مثلا: ما يكون من نجوى واحد إلا هو ثانيه ولا اثنين إلا هو ثالثهم..؟.

قيل: لأنه سبحانه لما علم أن بعض عباده كفر بهذا اللفظ وادعى أنه ثالث ثلاثة.. فلو قال: ما يكون من نجوى واحد إلا هو ثانيه لثارت ضلالة من كفر بالله وجعله ثانيًا - وقال وهذا قول الله هكذا.. ولو قال: ولا اثنين إلا هو ثالثهم لتمسك به الكفار فعدل سبحانه عن هذا لأجل ذلك ثم قال: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ﴾ [المجادلة: ٧] فذكر هذين المعنيين بالتلويح لا بالتصريح فدخل تحته مالا يتناهى وهذا من بعض إعجاز القرآن الكريم.

القاعدة الثانية:

حق ما يضاف إليه من العدد من الثلاثة إلى العشرة أن يكون اسم جنس أو اسم جمع وحينئذ فيجرد (بمن) نحو: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ [البقرة: ٢٦٠] ويجوز إضافته نحو: ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ [النمل: ٤٨] وإن كان غيرهما من الجموع أضيف إليه الجمع على مثال جمع القلة من التكسير - وعلته أن المضاف موضوع للقلة.. فتلزم إضافته إلى جمع القلة طلبًا لمناسبة المضاف إليه المضاف فى القلة لأن المفسَّر على حسب المفسِّر فتقول: ثلاثة أفلُس وأربعة أعبُد - قال تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧] - وقد استشكل على هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فإن (قُرُوءٍ) جمع كثرة وقد أضيف إلى الثلاثة ولو جاء على هذه القاعدة لقال: (أقراء) والجواب من أوجه:

إحداها : أنه أوثر جمع الكثرة هنا لأن بناء القلة شاذ فإنه جمع (قَرْوءٍ) بفتح القاف وجمع (فَعْل) على (أفْعَال) شاذ فجمعوه على (فُعول) إيثارا للفصيح فأشبه ما ليس له إلا جمع كثرة فإنه يضاف إليه كثلاثة دراهم ذكره ابن مالك.

ثانيهما: أن القلة بالنسبة إلى كل واحد من المطلَّقات وإنما أضاف جمع الكثرة نظرًا إلى كثرة المتربصات لأن كل واحدة تتربص ثلاثة – حكاه فى البسيط – عن أهل المعانى.

ثالثها: أنه على حذف مضاف – أى ثلاثة أقراء قروء –.

رابعها: أن الإضافة نعت فى تقدير الانفصال لأنه بمعنى (مِنْ) التى للتبعيض: أى ثلاثة أقراء من قروء.

كما أجاز المبرد: (ثلاثة حمير) و (ثلاثة كلاب) على إرادة (مِنْ) أى من حمير ومن كلاب.

القاعدة الثالثة:

ألفاظ العدد نصوص ولهذا لا يدخلها تأكيد لأنه لدفع المجاز فى إطلاق الكلِّ وإرادة البعض.. وهو منتف فى العدد وقد أورد على ذلك آيات شريفة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦] والجواب: أن التأكيد هنا ليس لدفع نقصان أصل العدد بل لدفع نقصان الصفة لأن الغالب فى البدل أن يكون دون المبدل منه.. ومعناه: أن الفاقد للهدى لا ينتقص من أجره شىء.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] ولو كانت ألفاظ العدد نصوصا لما دخلها الاستثناء.. إنما يكون عاما.. والجواب: أنَّ التجوُّز قد يدخل فى الألف فإنها تذكر فى سياق المبالغة للتكثير والاستثناء رفع ذلك.

ثالثها: قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١] – وقد سبق الجواب عنه فى باب التأكيد.

رابعها: قول الله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠] – وقوله: ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ [الحاقة: ٣٢] – قالوا المراد بها الكثرة – وخصوص السبعين ليس مرادا وهذا مجاز.

وكذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤] قيل: المراد المراجعة من غير

حصر وجيء بلفظ التثنية تنبيها على أصل الكثرة - وهو مجاز - والله اعلم.

من أسرار الإعجاز العددى:

أثبتت جميع الدراسات القرآنية أن لغة الأعداد فى القرآن لها منطلقات عدة فهى: إما لاختصار الزمن - أو بيان قيمة المعدود أو لفت النظر إلى المعدود - أو إثارة الانتباه - أو توضيح غموض ففى سورة الفاتحة مثلا وكونها مرتبطة بالعدد سبعة سواء عند من عد البسملة آية من السورة أو عند من لم يعدها آية واختار أن يعد لفظ: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الفاتحة: ٧] يقول الرسول ﷺ فى الحديث الذى يرويه الترمذى [1]: **(والذى نفسى بيده ما أنزلت فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها وإنها سبع من المثانى والقرآن العظيم)** [2] ففاتحة الكتاب هى السبع المثانى ومعروف أن عدد آياتها سبعة وعدد كلماتها تسع وعشرون كلمة وهى فى سورة الحجر واردة فى قول الله تعالى:

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر: ٨٧] - ورقمها سبع وثمانون وهذا الرقم يساوى ضرب ثلاثة فى تسعة وعشرين وهو ثلاثة أمثال كلمات الفاتحة - كما أن بها سبعة أسماء حسنى وعدد حروف هذه الأسماء هو اثنان وأربعون من مضاعفات السبعة والآية المذكورة فى سورة الحجر عدد كلماتها سبعة وكلمة (المثانى) سبعة أحرف ومعلوم أن القرآن الكريم نزل على سبعة أحرف وهذا سر من أسرار الإعجاز العددى كما هو ظاهر وبين.. فليتأمل.

كذلك آية الكرسى وهى أعظم آية فى كتاب الله تعالى - وكله عظيم - يقول عنها النبى ﷺ كما فى مسند النسائى: **(من قرأ آية الكرسى فى دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من**

---

(١) الوعى الإسلامى - العدد ٤٥٧ نوفمبر ٢٠٠٣ صـ٥٨ - ٥٩ بقلم: محمد شمس باشا

(٢) حسن صحيح : رواه الترمذى فى سننه حديث رقم (٣١٥) ، انظر صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (١٤٥٣) ، ومشكاة المصابيح حديث رقم (٢١٤٢) .

دخول الجنة إلا أن يموت)(١) فرقم هذه الآية الكريمة فى سورة البقرة هو ٢٥٥ وعدد كلماتها هو: ٥٠ كلمة وعدد حروفها هو ١٨٥ وفيها خمسة أسماء حسنى وهى: الله - الحى - القيوم - العلى - العظيم وعدد حروف هذه الأسماء الخمسة هو: ٢٥ حرفا وكلها مضاعفات للعدد خمسة.. وهكذا فإننا نجد أن عدد كلمات الآية خمسة أضعاف عدد الأسماء الحسنى فيها فهل يوجد ارتباط بين آية الكرسى وبين الصلوات الخمس.. فقد فرضت الصلاة أولا خمسين صلاة ثم خفضت إلى خمس صلوات دون أن ينقص أجر الخمسين لأن الحسنة بعشر أمثالها..؟؟.

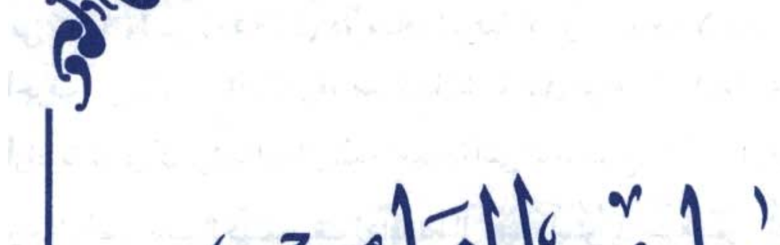
كما أن أحرف (الحمد) خمسة وقد ذكر فى بداية خمس سور من سور القرآن وهى: الفاتحة - الأنعام - الكهف - سبأ - فاطر، واختتم بها فى خمسة سور أيضًا وهى: الإسراء - والنمل - والصافات - والزمر - والجاثية، وهذا سر آخر من أسرار القرآن العظيم. وهناك سر يكمن فى مدة لبث نوح عليه السلام فى قومه ٩٥ سنة إذ يقول القرآن : ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] فإن كان نوح قد لبث فى قومه [٩٥٠] سنة فلماذا لم يقتصر الحق تعالى على القول: ﴿إِلَّا خَمْسِينَ﴾..؟؟ ألا يدل ذلك على أن مفهوم السنة يختلف عن مفهوم العام..؟؟.

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم نجد أن هناك آيات تدل بوضوح على أن كلمة [عام] تطلق على السنة القمرية كما فى قوله تعالى:﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨] فالآية تتحدث عن الحج وهو مرتبط بالسنة القمرية - وعلماء الفلك يقسمون السنة الشمسية إلى سنة نجمية وسنة مدارية وإذا أخذنا متوسط السنة النجمية والمدارية يكون عدد أيام السنة (١٠٠٠) سنة هو (٣٦٥٢٤٩) يوما ويقسم علماء الفلك أيضًا السنة القمرية إلى سنة نجمية وإلى سنة مدارية وإذا أخذنا متوسط السنة النجمية والمدارية يكون عدد ال (٥١) عاما هو (١٧٠٥٦) يوما وإذا ما طرح العدد - من السنة

(١) رواه النسائى فى السنن الكبرى رقم (٩٨٤٨).

النجمية – من عدد السنة الشمسية هكذا: ٣٦٥٢٤٩ – ٥٦ ١٧٠ = ٣٤٨١٩٣ يوما وهذا يساوى (٩٥٣.٣) سنة مدارية و(٩٥٣.٢٨) سنة نجمية وبهذا يتبين لنا أن مدة لبثه – عليه السلام هى: ٩٥٣ وليس (٩٥٠) كما هو متبادر للوهلة الأولى.. ووجه الإعجاز يتجلى فى أن عدد أحرف سورة نوح (٩٥٣) وهو مقدار ما لبثه نوح فى قومه بالحسابات الفلكية – ولعل هذا ما أراد الله تعالى أن يرشدنا به إلى المدة الحقيقية التى لبثها نوح عليه السلام – فى قومه بهذا الإعجاز وحول أصحاب الكهف يقول الله تعالى: ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الكهف: ٢٥] – والمفسرون يقولون أن ال (٣٠٠) سنة شمسية هى (٣٠٩) سنة قمرية ولكن وجها آخر من الإعجاز يدل على هذا المفهوم... حيث تبدأ قصة أصحاب الكهف فى السور بالآية (٩) وهى قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾ [الكهف: ٩] أما عن مدة لبثهم فقد ذكر فى الآية (٢٥) كما ورد.. وبلغة الأعداد نقول: إذا بدأنا العد من بداية القصة الآية (٩) فسنجد أن رقم الكلمة التى تأتى بعد عبارة: ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ﴾ هو تماما (٣٠٩) فليتأمل.. وهذا غيض من فيض إعجاز القرآن الكريم.. وقد يكون مقبولا لدى الباحثين اعتبار (الأطوار) المددية والزمنية هى مراحل (عددية) كمراحل (التخليق) كما فى علم (الأجنة) والتكوين كمراحل الضعف والقوة وكذا مراحل الطفولة والكهولة والهرم لارتباط هذا كله بأزمان ومواقيت ذات أعداد وأرقام وحسابات – والله أعلم .





المواجهة

١ ـ كن فى موقعك ..

٢ ـ ولا تلق سلاحك ..

٣ ـ ولا تصافح يدًا ملوَّثة ..




المواجهة

(أ) كن فى موقعك :

منذ بزوغ فجر الإسلام على وجه الأرض وهو يواجه تحديات ومخططات ودسائس عديدة تحطمت على صخرة الحق والإيمان، وخصوم الإسلام دائما يمارون ويجادلون ويكابرون ثم ينهزمون فى كل مرة ولذلك كان النبى ﷺ حريصا على ترتيب البيت المسلم من الداخل بتحذير أصحابه من الوقوع فيما بينهم فى مماراة أو جدال عقيم لا يخلص إلى شىء خاصة فى دين واضح ارتضاه الخالق للبشر من فوق سبع سماوات دين يسلّح أصحابه بالثبات واليقين والقوة الذاتية والعملية فعن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوما ونحن نتمارى فى شىء من أمر الدين فغضب غضبا شديدا لم يغضب مثله ثم انتهرَنا فقال: **(مهلا يا أمة محمد: إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ذروا المراء لقلة خيره، ذروا المراء فإن المؤمن لا يمارى، ذروا المراء فإن الممارى تمت خسارته، ذروا المراء فكفى بك إثمًا ألا تزال مماريا، ذروا المراء فإن الممارى لا أشفع له يوم القيامة، ذروا المراء فأنا زعيمٌ بثلاثة أبيات فى الجنة: رياضها ووسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق، ذروا المراء فإن أول ما نهاني عنه ربى بعد عبادة الأوثان: المراء)** [1].

وعنه ﷺ قال: **(من ترك الجدال وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة ومن تركه وهو محق بنى له فى وسطها ومن حَسُنَ خُلُقُهُ بُنِيَ له أعلاها)** [2] فكان هذا أساسا متينا ودعامة قوية شيدت البناء الإسلامى الشامخ لأن المراء كان سببا فى هلاك الأمم وذهاب ريحها وضياع رسومها ومعالمها بالكلية... وقد وجد توجيه النبى ﷺ قبولا وإقبالا عظيما لموافقته للفطرة والمروءة والطبيعة السليمة فقد قيل لأعرابى: ما تقول فى المراء؟ قال: ما عسى أن أقول فى شىء يفسد الصداقة القديمة ويَحُلُّ العقدة الوثيقة.. أقل ما فيه أن يكون ذريعة للمغالية والمغالبة أمتن أسباب الفتنة.

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير.

(٢) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه والبيهقى.

ولقد كان النبى ﷺ يعرف كَوَامِن النفس البشرية وتطلعاتها بغية الغلبة ولو كان ذلك بإيقاع الضرر على الغير فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ : أن عيسى عليه السلام قال: **(إنما الأمور ثلاثة: أمر تبين لك رشده فاتبعْه وأمر تبين لك غيُّه فاجتنبْه وأمر اختلف فيه فرده إلى العالم)** [١] والمراء يخرج المُرائى عن ثباته ويقينه فلقد وقف أحد المرائين أمام النبى ﷺ فجعل النبى ﷺ لا يتكلم بكلام إلا كلفته نفسه أن يأتى بكلام يعلو كلام النبى ﷺ فلما انصرف المرائى قال النبى ﷺ : **(إن الله لا يحب هذا وأضرابه يلوون ألسنتهم للناس لىَّ البقر بلسانها المرعى)** [٢] ولقد حاول اليهود - كما أسلفنا - جرَّ المسلمين إلى معارك جدلية بدافع الحقد والعناد والمِراء فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبى ﷺ : هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟ قالوا: لا ندرى حتى نسأله، فجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا محمد غُلبَ أصحابُك اليوم - قال: وبم غُلِبوا؟ قال: سألهم يهود: هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم قال: **(فماذا قالوا؟)** قال: قالوا لا ندرى حتى نسأل نبينا ﷺ قال: **(أفغلب قوم سئلوا عما لا يعلمون فقالوا لا نعلم ولكنهم أى اليهود سألوا نبيهم فقالوا:** ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ والنفس البشرية [٣] فى رحلتها على الأرض تواجه أسئلة ترد على الفطرة لا محالة وتطلب الجواب تقول النفس: مَنْ خالقُ هذا الكون؟ من أين جئنا؟ إلى أين نذهب بعد الموت؟ من مدبر الكون ومنشئ الأحداث ولأى شىء نعيش؟ فهل يا ترى من يملك دليل الرحلة الذى يدله إلى معالم الطريق أهدى؟ أم من يخبط خبط عشواء بلا دليل؟.

أيها أهدى؟ من يملك غاية موحدة يهدف إليها أم من له غايات متعددة متضاربة يحدوه إليها حداة مختلفون كل يدعوا إلى طريق..! لقد اعتنى القرآن الكريم بهذا الجانب النفسى وصوره تصويرًا واقعيًا ممثِّلاً ليكون كافيا لإقناع من فى قلبه ذرة من شك أو فى عقله من

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير .

(٢) رواه الطبرانى .

(٣) مذاهب فكرية معاصرة - محمد قطب - دار الشروق من ص ١٩ .

ارتياب أو لجاجة قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩] وقال أيضًا: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف: ٣٩] والإنسان إذا نأى بنفسه عن مواطن الفتنة – أيا كانت – فإنه بذلك يحقق هدفًا إسلاميا عظيمًا يركز على فهم معنى التوحيد بلا خلط أو تعقيد فمن الذى يرسم للبشرية منهج الحياة غير الموجد لهذه الحياة؟ ومن الذى يقول هذا حلال وهذا حرام إلا من شرع الدين؟ ومن الذى يبيح أو يحظر أو يحسّن أو يقبّح إلا خالق الجواهر والأعراض؟ ومن الذى يقول هذا طيب وهذا خبيث إلا عالم بمكنون الأسرار؟ إنه الإله الحقيقى المعبود..! وليس حق الآلهة المدعاة .! حق الخالق الآمر ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤] حق العليم الخبير وليس حق أى جاهل محدود الأفق مشتت الفكر موزع الهوية قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦] وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] وقال كذلك: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: ٣] وشريعة الله تعالى تقوم على العدل المطلق ؛ لأنه الغنى الحميد ومالك الملك الذى لا تنفذ خزائنه والذى رسم لهم طريق الخير والبرِّ والطهر والرفعة قال ﷻ : ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: ٢٧] وقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

إن المنهج العلمى والواقعى للمهتدين والمتدينين لا يقبل الدنيَّة ولا الدونيَّة لأنه مبنى على سلوكيات رفيعة وأغراض هامة وأهداف نبيلة تهدف فى نهاية المطاف إلى: (استقدام بواعث الخير واستحضار مشاعر النبل والسموِّ والترفُّع عن الصغائر) لتقييم بشرىً رفيع لا

حيوانىٍّ منحطٍّ أو مادىٍّ موجَّه بيْدَ أن الاتجاه المنسلخ من الدين والمتجه إلى المادية لم يقفز دفعة واحدة من الروحانية الدينية إلى المادية اللادينية ولا استقام نحو هدفه فى طريق واحد خال من الذبذبات ولكنه كان فى كل قفزة يتجه إلى المادية أكثر ويبعد عن الله أكثر وأكثر فى مماراة عجيبة وفى دوران أعجب؟ حتى إن عاد فهى عودة مؤقتة سرعان ما يتخلص منها ولطالما حاول الملحدون وعملاؤهم من (المتأسلمين) إسباغ الصيغة العدوانية على كل شىء يحمل اسم الإسلام أو رمزا إسلاميا لأن هذا فى اعتقادهم محاولة لإعادة جانب ميت من جوانب الحياة يثير اهتمام البشر ويقعدهم عن التقدم والتحرك ويكيِّفهم لقبول الجمود والالتزام كحل يقتل فيهم قبول الآخر وينحط بهم إلى التطرف الأخلاقى فى الدين ؛ لأن الدين - ذاته - فى مفهومهم أباح كل شىء وليس من حق أحد أن يجمِّد أو يحجب ما أباحه الدين عن طالبيه وتقوم فلسفتهم على اعتبار أن الدين إذا لم يتجدد ويواكب العصور ويتفاعل مع المستجدات (المفروضة) فإن ذلك يسىء إلى الدين ذاته..! ونسى هؤلاء جميعًا أن الدين الذى لا يعرفون جوهره لا يعترف بهم كخلائق تستطيع أن ترتقىَ على سلَّمه أو تهتدى إلى حقائقه .

يقول الدكتور محمد البهى رحمه الله: (إن تحصيل الإنسان للحقائق الكونية ومعرفته بها لا يكون إلا بالتجربة الحية وحدها ومعنى ذلك أن الحى المشاهد لا غيره هو مصدر المعرفة الحقيقية اليقينية.. ففى العالم الحى تكمن حقائق الأشياء أما انتزاع المعرفة مما وراء الظواهر الطبيعية الحسية والبحث عن العلة فى هذا المجال فأمر يجب أن يرفض ولهذا تكون كل نظرية أو فكرة عن وجود له طابع الحقيقة فيما وراء الحس نظرية أو فكرة مستحيلة)[1] .

فإدراك ما وراء الحدود يزيل معالم الحدود ذاتها إذ لا يخفى على عاقل أن صدق الرؤية يتعلق بتحقيق المرئى وصناعة الصورة المرئية المتوقعة بكافة عناصرها وتجسيد حقائقها وتحديد مواقعها وسبلها بحيث تشاهَد وتعايَن وتمارَس أنماطُها حتى يستقر الإحساس الصحيح ومهما تداخلت العناصر والمشاهد - عندئذ - فضرورى أن تكون الحقائق كما هى على صورتها وواقعيتها ولأصحاب المادية الجدلية تصور خاص لقضايا الألوهية والكون

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة - المرجع السابق ص٢٦٢ .

والحياة والإنسان يقوم على أساس مادى بحت على أساس أن المادة هى الشىء الوحيد الأصيل فى هذا الكون وأن كل ما فى الكون ومن فيه منبثق من المادة ومحكوم بقوانين المادة ولا وجود له خارج نطاق المادة.. كما يقوم هذا التصور من جهة أخرى على أساس وجود التناقض فى طبيعة المادة ومن ثم فى كل ما ينبثق عنها من مخلوقات ومن كيانات بما فى ذلك الكيان الإنسانى فهو كيان مادى من جهة ومحكوم بصراع المتناقضات من جهة أخرى وهذا الفكر الماركسى قامت على أساسه نظم ومبادئ وحركات ولأن (كارل ماركس) لم يكن هو وحده مبتدع الجدلية أو التفكير الجدلى على العموم فقد سبقه إلى ذلك (هيجل) ولكنه خالفه فيه مخالفة أساسية إذ قال هيجل: إن الفكرة هى الأصل وهى سابقة فى وجودها على المادة ومسيطرة عليها..

ويعلق ماركس على ذلك بقوله: (لا يختلف منهجى الجدلىّ فى الأساس عن منهج هيجل فقط بل هو نقيضه تماما إذ يعتقد هيجل أن حركة الفكر التى يجسدها باسم الفكرة هى مبدعة الواقع الذى ليس سوى الصورة الظاهرية للفكرة أما أنا فأعتقد على العكس أن حركة الفكر ليست سوى انعكاس حركة الواقع وقد انتقلت إلى ذهن الإنسان) ومن ثم سميت جدلية هيجل الجدلية المثالية – وجدلية ماركس الجدلية المادية أو المادية الجدلية - ويظهر جليا أثناء الحوار أو الجدل أن إحدى وجهتى النظر تأخذ فى التراجع المؤدى إلى التسليم بينما تأخذ وجهة النظر الأخرى فى التفوق حتى تتغلب فى نهاية الأمر وإن كانت فى غلبتها لا تلغى الأخرى تماما بل تبقى منها بقايا تظهر فى الحقيقية النهائية.. والمادية الجدلية تتصور الأحداث سواء كانت طبيعة مادية أو بشرية على هذا النحو ذاته حيث تكون هناك قوة فى اتجاه معين وقوة أخرى مناقضة لها فى الاتجاه المضاد ثم يحدث الصراع الذى ينتهى بانهزام القوة الأولى – وإن كانت لا تزال تماما – وتغلب القوة الثانية وإن كانت غلبتها ليست تامة ومن ثم فإن استعارة الجدل من ذلك الحوار الفلسفى مناسبة لذلك التصور ومعبرة عنه وعلى هذا الواقع المادى يطلق اصطلاح الجدلية على عملية التنازع والتوفيق التى تجرى ضمن الواقع ذاته داخل الفكر البشرى بشأن الواقع.. وهناك أغلوطات شنيعة يراد إلصاقها دائما بالدين الإسلامى من نحو التخلف والرجعية والجمود مع أنهم كانوا يعتقدون أن القرآن الكريم تأثر بالتوراة

وأخذ منها وقيدوا تعاليم الإسلام بكونها تعاليم تحث على فضائل الأخلاق وحسن التأسى وحسب..؟.

ومن خلال هذا العرض (المادى الجدلى) لاحظنا سقوط جميع نظرياته وأطروحاته وسقطت بعد وقت الشيوعية وكذلك العلمانية سيحل عليها نفس المصير والمواجهة محتدمة – كعادتها – بين المتدينين المسلمين وغيرهم من مهندسى الإلحاد والكفر.. أما منطق التسليم لهم فهو بالطبع ترك لموقع العمل والذى لابد من التواجد فيه مهما كان الثمن باهظا أو مكلفا.. ويخطئ كثيرا من يحول دفة الجدال العلمى – إن صح التعبير – من وجهته الصحيحة وزاويته المستقيمة ضد الخصوم إلى معارك وهمية ضد مسلم – أيا كان – وفى كل الحالات توجد بصمة يهودية تمسك بخيوط اللعبة – الجهنمية – وتجنيد عملاء يحملون الجنسية العربية والهوية الإسلامية والقسمات الشرقية ليكونوا لهم أعوانا على جميع مخططاتهم وبرامجهم ودسائسهم لتشكيل مجتمع جديد يكون دائما فى قبضتهم من أول لحظة على أساس غير دينى أو أخلاقى أو تقاليد مستجدة من القيم الدينية ويحاولون مسخ الدين والأخلاق والتقاليد ولكن بطريقة (علمية)..! منتهى الذكاء والدهاء! فالدين نابع – عندهم – من الجنس ومن كتب الشهوة الجنسية التى يحسها الطفل الذكر نحو أمه؟ والدين – عندهم – أفيون الشعوب ومخدرها؟

والدين – عندهم – وجودية لا تعترف بإله ولا تعتمد على خالق؟ وهذه أُغلوطات واضحة.. ونظريات ساقطة تسفر عن وجهها القبيح..! بل هى أشد قبحًا إذا خلصت إلى عقول بعض المتأسلمين ونفذت إلى قلوبهم فاستبدلوها بما كان يجب عليهم التمسك به والركون إليه وهو الإيمان واليقين.. مما لجأ بهم إلى المماراة وحدا بهم إلى التشنيع على الدين والثوابت بما لا يدع مجالا للكلام! قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [البقرة: ٨: ٩].

(ب) ولا تلق سلاحك !

من المعلوم أن أصحاب الفكر المادى لهم دعاوى عريضة يتحدثون بها عن فقههم فى الكون وإحاطتهم بأسراره وعلمهم بظواهره وبواطنه وكأنهم يريدون إحاطة البشرية علمًا بأنهم كفروا عن علم وذكاء..! كتب أحد مؤرخيهم **الدكتور (فوردبلات)** معللاً لنشأة الحياة على الأرض مجتهدًا أن لا يذكر شيئا عن الله قط..! **ونسب كل شىء مجهول مطلق فهو يقول :** (لا نستطيع أن نحدد كَمّ من الوقت استغرقت البادرة الأولى من بوادر الحياة لكى تظهر فلم يكن هناك أى تحديد للوقت -يومذاك- وفى خلال العصور المظلمة ظلت القطرات تجيش وتطرب فى مياه البحار الفاترة ولابد أن تجمعات لا نهائية من الذرات قد حدثت فى المادة العضوية الهلامية ولكن هذه التجمعات كانت تمحى من الوجود.. بينما تمكنت أفضل القطرات تركيبا من البقاء أما القطرات الأضعف فقد انهارت خلال عملية يمكن أن نسميها بالاختيار الطبيعى قبل بدء الحياة.. وهكذا ظلت العناصر تكافح وتناضل نحو خلق الحياة فى سكون وحركة لا ترى[1] .

وهذا الكلام خالٍ من أى واقع إذ أن جميع العلماء أجمعوا على استبعاد ما يسمى (بالصدفة) فى بروز هذا التكوين إلى الحياة لأن التأليف المنسق المحكم الرائع الذى يتم به هذا التكوين قاطع فى أنه وليد إشراف أعلى وإدارة مختارة..! والزعم بأن العالم نشأ من تلقاء نفسه يزدرى العقلاء خباياه لأن أوله يناقض آخره..! وآخره يكذب أوله أما الموقونون بالله واليوم الآخر عندما يدركون الوجود فإنهم يرتفعون بقيمته ويسلمون للخالق عز شأنه فى جميع قضاياه وتقديراته الإلهية.. فيشكلون أنفسهم وفق مراد الله تعالى منهم ويشكلون الحياة وفق مراده تعالى لها وكيف تكون ويحسون بأنهم وهم على ظهر الأرض كأن لهم نسبا فى السماء وأن لهم قرابة تصلهم بأزل العالم وأبده وهؤلاء الموقونون لهم ارتباط عظيم بالدين ويحسون بنعمة الوجود وهم أيضًا يدرون دراية مطمئنة من أين جاء؟ وإلى أين يصير؟ أما الشخص المادى الذى يؤمن بجسد لا روح معه ودنيا لا آخرة بعدها فهو مبتور الحسّ مشوَّه البصيرة وفكرته

(١) ركائز الإيمان – صـ٤٠ – محمد الغزالى – دار الاعتصام – دار النصر للطباعة الإسلامية.

عن الحياة تهوى بقيمته البشرية إلى الحضيض..! والعجيب فى مزاعم الماديين والوجوديين وكل كافر بالسماء أنهم يحسبون أنفسهم تقدميين وأن غيرهم من المتخلفين من بقايا القرون الجامدة وهذا ما قاله الوثنيون لرسول الله ﷺ منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان حيث قال الله تعالى على لسانهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [النمل: ٦٧: ٦٨].

ومن الغريب أن الملحدين يحاولون إبراز (جدلياتهم) فى صورة عقلية لا تقبل أى تفسير دينى أو أخلاقى لاصطدام ذلك مع عقائدهم المادية وفكرهم الإلحادى والذى قاموا بتوريده إلى المتأسلمين العرب والذى قام المستوردون له بتسميته ب (التنوير) أو الآراء المستنيرة وسقطوا فى مستنقع جهالات ثلاث – لم يعلموها – أقنعهم بها مفكروا الغرب من الملحدين واليهود.

الأولى: المادية [1] وهى التى تبرز جانب الجد وجانب الحسّ وجانب المادة فإذا أخذت شيئا من النفخة العلوية أخذت جانب العقل وأبت جانب الروح وسخرت العقل – من ثم – فى شهوات الجد ومطالب الحس وعالم المادة ففقدت علويته ورفعته وأسفّ مع قبضة الطين وأنشأ عمارة مادية للأرض خالية من إشراقة الروح.

الثانية: الروحية وهى التى تبرز جانب الروح وتهمل الجسد وتكبته وتقهره وتحتقره وتقوم بتعذيبه من أجل رفعة الروح كما تفعل الهندوكية والرهبانية كما أنها تهمل عالم الحس وعالم المادة فلا يقوم الإنسان بعمارة الأرض ولا يقاتل الشر والطغيان ولا يجاهد لإقامة الحق والعدل اكتفاء بلذة الفناء فى عالم الروح التى يتم من خلالها الوجود.

الثالثة: المعاصرة وهى الجاهلية المادية المغرقة فى المادية والتى هى عندهم قاعدة الحياة وقيم الحياة مادية بحتة وعمارة الأرض على أساس مادى بحت والتفسير المادى للتاريخ هو

---

(١) مذاهب فكرية – المرجع السابق – من ص٣٩٣.

واقع الحياة هنا وهناك وهذه وإن كانت نظرية إلا أنها أسوأ بكثير من التطبيق وهذا هو المخطط الكبير الهادف إلى تسخير الأميين لشعب الله المختار..!.

فإذا ما حققنا بعد ذلك ومحّصنا موقف الموقنين الموحدين لوجدنا أنهم يقولون بأن العبادة حق الله تعالى على جميع مخلوقاته - أى حق الخالق على المخلوق - ولكن الله فرض على كل نوع من مخلوقاته عبادة تناسب تكوينه - فالمادة لها عبادة - والملائكة لها عبادة - والإنسان له عباده - تشترك جميعا فى أنها عبادة وأنها (سجود) وأنها (تسبيح) ولكن تختلف فى الطريقة قال الله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ويقول: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ ﴾ [الحج: ١٨].. واختص الإنسان بلون من العبادة يناسب اختصاصه من الله تعالى بالخلافة فى الأرض تحقيقا لقول رب العزة جل وعلا: ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ﴾ [البقرة: ٣٠] ويناسب أيضًا تكوينه من جسد وعقل وروح فهو يعبد الله بالسجود والتسبيح والتكبير والتحميد على نحو معين علمه الله إياه على يد رسله وأنبيائه جميعا وخاتمهم رسول الله ﷺ وهو يعبد الله تعالى بعمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى المنزل من عند الله لتنظيم حياة الناس فى الأرض وإقامتها بالقسط قال تعالى: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ [الحديد: ٢٥] فهو فى صلاته وتسبيحه ونسكه عابد لله.. وفى مشيه فى مناكب الأرض وأكله من رزق الله بالضوابط التى أقامها الله من حلال وحرام هو عابد لله.. وفى زواجه وإقامة أسرته ورعايتها فى حدود الضوابط والتوجيهات الربانية هو عابد لله.. وفى طلبه العلم سواء للتعرف على أوامر ربه ونواهيه أو للقيام بعمارة الأرض على المنهج الربانى هو عابد لله.. وفى إقامته شريعة الله فى الأرض هو عابد لله.. وفى قتاله لتكون كلمة الله هى العليا هو عابد لله

وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ [الأنعام: ١٦٢: ١٦٣] فليست مهمة الإنسان إذن هى الإنتاج المادى وحده وإن كان هذا جزءًا من نشاطه وعمله فى الأرض لكن عن طريق الإنسان لا عن طريق الآلة – أى واعيا مدركا لأهدافه العليا – ملتزما فى إنتاجه بالضوابط الربانية التى تحدد الحلال والحرام والحسن والقبيح والمباح والمكروه والمندوب، مهمة الإنسان بالطبع هى العبادة بمعناها الشامل للعقيدة الصحيحة وشعائر التعبد والنشاط الحيوى فى شتى مجالات الحياة العلمية والعملية وفق منهج الله ﷻ.. إن الاستقرار المستمد من تطبيق الشريعة الربانية المحكمة التى لا تخبُّط فيها ولا انحراف.. وليس معنى الاستقرار الجمود عن الحركة ولا معناه كذلك الخلوُّ الكامل من المشكلات وإنما معناه استقرار الأسس التى تقوم عليها الحياة أما الحياة ذاتها فلا تكف عن الحركة الفاعلة ولا تخلو من أمور تجدُّ فى حياة الناس تحتاج إلى جهد يبذل لحل مشكلاتها وتقويمها بمقتضى منهج الله وهذا الجهد أو الكدح فهو ذاته من سمات الحياة الدنيا قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) ﴾ [الانشقاق: ٦] وقوله كذلك: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) ﴾ [البلد: ٤].

وهناك كدح يتم فى غير هذا الإطار الأشد المستقر فيكون كدحًا مؤديا إلى البوار وإن حقق منافع على المدى القصير قال الله تعالى:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) ﴾ [هود١٥: ١٦].

أما الطمأنينة فمصدرها ذكر الله: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد: ٢٨] والاطمئنان إلى قدر الله: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ

أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق: ٣] وتحقيق الهداية من الله:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [التغابن: ١١].

وإحساس الإنسان أنه يصارع ما يصارع من القوى فى الأرض وهو مستند إلى الذى هو أكبر وأعلى من قوى الأرض مجتمعة وحتى حين يمسهم السوء بقدر من الله يجدون بأيديهم سلاحا باترا قاطعا منجزًا هو سلاح الإيمان واليقين بالله فلا يخافون ولا يترددون ولا يرفعون أيديهم مسلِّمين للأعداء؟ لأنهم بإيمانهم المستعلون الأقوياء وبرهان ذلك فى القرآن:

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه: ٧١: ٧٣].

وأما البركة فمصدرها رعاية الله وإغداقه على المتبعين لمنهجه بعد أن تنتهى فترة الابتلاء والتمحيص قال الله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح: ١٠: ١٢]، ومصدرها ارتفاع مشاعر الناس عن التكالب على متاع الأرض الذى يحدث الجوعة الدائمة التى لا تشبع.. واللهفة الدائمة التى لا تستقر وحين ترتفع المشاعر بغير رهبانية ولا حرمان يحدث الرضا النفسى الذى هو عنصر البركة والقبول فالناس شركاء فى الخير لا يختص به فريق دون فريق.. أما إذا اختار الناس طريق الشر فأشركوا بالله فى العبادة أو كفروا به جهرة ونبذوا عبادته وأعرضوا عن شريعته فأول ما يقعون فيه هو عبوديتهم بعضهم لبعض وانقسام المجتمع إلى سادة وعبيد.. سادة يملكون ويحكمون ويشرعون وعبيد ينفذون

وهم أذلاء مهينون..! هذا منطق الإيمان الذى لا يسقط ولا ينزع ولا يلقى على الأرض.. أما دعوى التأخر والمبنية على هذا المنطق -من وجهة النظر الأخرى - فهى فى الواقع الدعوى (الضارة النافعة) فهى وإن تحمَّل جنايتها المسلمون وحدهم - لا الإسلام - فهى قد نفعت الماديين بعض الوقت ومنحتهم فرصة ذهبية للطعن وبث سموم الحقد والكراهية لأن التقدم المادى والعلمى خط قائم بذاته ظهر من خلال التاريخ البشرى غير متعلق بالهدى ولا بالضلال قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٠]، ومنشأ تلك الرغبة الفطرية التى أودعها الله قلب الإنسان التى تدفعه إلى التعرف على خواص المادة وخواص الكائنات الحية من حوله.. ومحاولة استخدام هذه المعرفة فى التحسين المستمر لأحواله المعيشية وهى رغبة - كما ذكرنا - لا تتعلق بالهدى ولا بالضلال ومن ثم فجعلها هى المقياس لتقدم الإنسان يؤدى إلى نتائج باطلة فقد يحدث - كما حدث فى وقت نشأة الأمة الإسلامية - أن يكون الحاملون للهدى الربانى المتبعون لمنهج الله تعالى متأخرون فى مبدء أمرهم من الناحية العلمية والتكنولوجية.. فليس الخطر من العمارة المادية للأرض ويكونون مع ذلك فى أعلى درجات الرفعة الإنسانية كما كان جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : **(خير أمتى القرن الذى بعثت فيه ثم الذين [1] يلونهم)** فلا يمنعهم هذا التأخير -المؤقت- فى ميدان العلم النظرى والتطبيقى أن يكونوا أروع نماذج للبشرية فى أوّج ارتفاعها ولكنهم بحكم الانطلاقة الهائلة التى تحدثها النشأة الجديدة فى كيانهم لابد أن يتجهوا بعد فترة من الزمن إلى العمارة المادية وتظهر إنجازاتهم فيها كما حدث للمسلمين فى العهدين الأموى والعباسى بينما يحدث كثيرا أن يكون قوم فى قمة العمارة المادية للأرض ولكنهم فارغون من القيم العليا فتزداد حياتهم خللا وانحدارا كلما أوغلوا فى العمارة المادية ومن ثم لا يصلح التقدم المادى وحده معيارا من معايير التاريخ حقيقة إنه جزء من مهمة الخلافة التى خلق الله الإنسان ليقوم بها فى الأرض بحيث يكون الإنسان المتقاعس فى هذا الجانب - مع القدرة عليه - مقصرا فى أداء

---

(١) رواه مسلم .

جزء من مهمته ولكن العبرة ليست فى مجرد أداء هذه المهمة إنما فى الطريقة التى تؤدى بها هل هى متفقة مع المنهج الربانى - أى متقيدة بالحلال والحرام ونظافة المشاعر ونظافة السلوك والأمانة والعدل وسائر القيم العليا التى تكون الجوهر الحقيقى لإنسانية الإنسان أم غير متفقة مع ذلك المنهج أى غير متقيدة بالحلال والحرام والنظافة الحسية والمعنوية والأمانة والعدل وسائر القيم العليا التى تكوِّن الجوهر الحقيقى لإنسانية الإنسان - فالتقدم العلمى والتكنولوجى ضرورى لعمارة الأرض ومن ثم فهو واجب على أى مجموعة من البشر يضمها تجمع معين ولكن لابد له من شروط يقوم عليها وإلا فقد كثيرا من اعتباره وتحول إلى أداة سلبية تدفع الإنسان إلى الدمار...!

قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ﴾[الروم: ٩].

وليس من الضرورى أن يتم التدمير بمجرد ظهور الفساد واستشرائه فإن من سنن الله أن يمد للقوم الظالمين - مع ظلمهم ويمكّن لهم ويفتح عليهم أبواب القوة فى كل اتجاه ليزدادوا فسادا وانحرافا ويزدادوا استحقاقا للتدمير - قال عز من قائل:

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٤٥) ﴾[الأنعام: ٤٤، ٤٥].

بينما من سنن الله مع المسلمين ألا يمكّن لهم فى الأرض إلا وهم مستقيمون على طريقه فإذا انحرفوا زال عنهم التمكين حتى يعودوا إليه.. قال جل شأنه:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور: ٥٥].

الإسلام دعامة لكل القوى الإنسانية وصفة عليا تتمثل فى قبول الإسلام لكل مستحدث وكل ما يجد على الساحة، ولا تداخل ولا تعارض بين قيمه العليا ومثله الرفيعة وربما حلا لأعداء الإسلام رميه بالجمود أو التخلف -على حد زعمهم- ولكنهم يعتقدون فى سلطانه عليهم وسحقه لماديتهم وإسكاته لغوغائيتهم واعترافهم بأن الحلول العاجلة والآجلة لا توجد إلا من خلال المنظور والرؤية الإسلامية لما جاء على لسان (برناردشو) قوله: (لو كان محمد حيا لقام بحل مشكلات العالم وهو يحتسى فنجانا من القهوة) وها هو الواقع العملى على الأرض.. لذلك فهو سلاح ماضٍ فى وجه كل معاند أو مكابر أو جاحد كما أنه حقيقة الحقائق التى حفظ الله بها سيادة المتسلحين به فى طول الأرض وعرضها وأول دليل على ذلك هو بقاء واستمرار الدعوة على مدى هذه القرون رغم كل المخططات والمحاولات اليائسة لضربه وإيقافه وصدق الله حيث يقول: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

(ج) ولا تصافح يداً ملوثة ؟!

عندما تصاب أمة من الأمم بمرض (فقدان الذات) فإن أبرز دواعيه تتمثل فى التسليم غير الواعى للأمم الأخرى والاستمرار غير الواعى من مناهجها ونظمها وسلوكيتها[١].. وقد وقع ذلك فى حياة الأمة الإسلامية تأويلا لقوله ﷺ : **(لتركبن سنن من كان قبلكم شبرا بشبرا وذراعا بذراع حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتموه ولو أن أحدهم جامع أمرأته بالطريق لفعلتموه)**[٢] ولم يكن أخطر من هذا المرض إلا الجهل بحقيقته وعدم إدراك أسبابه فكان التشخيص الخاطئ سببا فى العلاج الخاطئ الذى جاء بمضاعفات جديدة وخيل للأمة أن هذا الداء العضال يمكن مداواته باستعارات ساذجة ومظاهر جوفاء وترقيعات صفيقة تتلقاها جميعا من الكفار التى أصبحت تخجل من أن تسميهم بهذا الاسم بل أسمتهم (بالعالم المتحضر) و(الأمم الراقية)..!! وكان استعدادنا الذاتى وقابليتنا للذوبان هما المبرر الأكبر للحرب النفسية الشرسة التى نسميها (الغزو الفكرى) تلك التى استهدفت مقومات وجودنا وأسس أصالتنا وجاءت طلائع الغزو الفكرى بشعارات متعددة واتجاهات متباينة يكفى بريقها لإغراق أمة بكاملها فى الضلال جاءت القومية والاشتراكية والوطنية والديمقراطية والحرية وفلسفة التطور واللادينية وغيرها من المسميات والشعارات مما ترتب على ذلك وجود أجيال هزيلة ممسوخة أخذت على عاتقها مهمة تعبيد أمتها للغرب والإجهاز على منابع الحياة الكامنة فيها.. ومرت فى مطلع القرن العشرين حقبة مظلمة راجت فيها سوق الأفكار الموبوءة والمذاهب المنحرفة حتى أظهر أعداء الإسلام تفاؤلهم بأن هذه الأمة ستلفظ أنفاسها عما قليل ولكن الله تعالى أنبت وسط هذا الركام رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه فأدركوا أن العودة إلى صفاء العقيدة الإسلامية ووضوح الرؤية والتصور والمفهوم تستدعى منهجية أصيلة نقية من التأثيرات

---

(١) العلمانية: نشأتها وتطورها فى الحياة الإسلامية المعاصرة تأليف / سفر بن عبد الرحمن الحوالى – مكتب الطيب صـ٨ وما بعدها.

(٢) رواه مالك بسند صحيح.

والإيماءات الفكرية المنحرفة وأصبحت ضرورة دراسة الأفكار والمذاهب غير الإسلامية أمرًا مقضيا بل ملزما للتعرف على الحقائق والنوايا خاصة بعد أن تميزت هذه الحقبة بنـ زوع (عملاء) الغرب إلى الترويج وتعبيد الطريق كما ذكرنا إلى الفكر العلماني الزاحف في حذر إلى أرض الإسلام وتم التوصل إلى أن غموض المدلول الحقيقي لهذا الاصطلاح الخادع والبرّاق بالنسبة لكثير من المثقفين فضلاً عن العامة أصبح واضحا فبالرغم من الكساد الذي بدأت به المذاهب كالشيوعية والاشتراكية تُمُنّى به بعد اكتشاف الجماهير لحقيقتها ما تزال أسهم العلمانية مرتفعة سواء باسمها الصريح أو تحت شعار آخر من الشعارات المضللة..؟ كما تم التوصل أيضًا إلى أن التوافق بين ذات العلمانية بوصفها فكرة غربية واعية وبين موضوعها المتمثل في عزل الدين عن توجيه الحياة وهو ما يعاني منه الواقع الإسلامي المعاصر فالعلمانية موضوعيا موجودة ولكن بشكل غير متكامل ومن ثم تحتم على أهل الاختصاص دراستها وكَشْفِ زيفِها وإيضاحِ تعارضِها مع المفهوم الصحيح للإسلام.

إن لفظ (العلمانية) لا صلة له بالعلم ولا هو مشتق منه وزيادة الألف والنون فيه غير قياسي في اللغة العربية أي في الاسم المنسوب وإنما جاءت سماعا ثم كثرت في كلام المتأخرين كقولهم: (روحاني وجسماني ونوراني) والترجمة الصحيحة للكلمة (اللادينية) أو (الدنيوية) لا بمعنى ما يقابل الأخروية فحسب بل بمعنى أخص هو ما لا صلة له بالدين أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد وتقول دائرة المعارف البريطانية عن العلمانية: (هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها) ويقول قاموس (العالم الجديد – لوبستر) شارحًا للمادة نفسها: (الروح الدنيوية أو الاتجاهات الدنيوية ونحو ذلك وعلى الخصوص نظام من المبادئ والتطبيقات يرفض أي شكل من أشكال الإيمان والعبادة) ويقول: (الاعتقاد بأن الدين والشئون الكنسية لا دخل لها في شئون الدولة وخاصة التربية العامة.. كما يقول أيضًا معجم أكسفورد شرحًا لها: (دنيوي أو مادي ليس دينيا ولا روحيا مثل: التربية اللادينية الفن والموسيقى اللادينية.. السلطة اللادينية.. والحكومة المناقضة للكنيسة) كما يترجم لها أيضا بقوله: (الرأي الذي يقول إنه لا ينبغي أن يكون الدين أساسا للأخلاق والتربية).

والمدلول الصحيح للعلمانية هو: (إقامة الحياة على غير الدين) سواء بالنسبة للأمة أو للفرد وقد قسمها العلماء إلى قسمين: **الأول**: العلمانية المعتدلة - أى المجتمعات اللادينية ولكنها غير معادية للدين، **والثانى**: العلمانية المتطرفة - أى معادية للدين والمضادة له وهم يعنون بها المجتمعات الشيوعية وأخواتها - هذا وقد سلكت مدارس الفكر اللادينى مناحِى خاصة غايتها: تقويض الدين واجتثاث مبادئه من النفوس وأشهر هذه المدارس:

١- **مدارس ذات طابع علمى عام**: وأبرز الأمثلة عليها الكتاب الموسوعيون الذين كتبوا دائرة المعارف بزعامة (ديدرو) وكانوا كما يقول ويلز: (يناصبون الأديان عداوة عمياء).

٢- **مدرسة ذات طابع اجتماعى وسياسى**: ويرأس هذا الاتجاه (روسو) صاحب كتاب (العقد الاجتماعى) الذى أطلق عليه (إنجيل الثورة الفرنسية) و(مونتسكيو) صاحب (روح القوانين) من كتابات هؤلاء استلهم زعماء الثورة مبادئهم واقتباساتهم.

٣- **مدرسة ذات طابع فلسفى هدام** : سبق الفلاسفة العقلانيون غيرهم فى بحث علاقة الفرد بالدولة والمناداة بمجتمع ينفصل فيه الدين عن الدولة وكانت فكرتهم اللادينية أوسع مما تصوره (ميكيافللى) لأن الدين نفسه عندهم يجب أن يلغى ليحل محله الدين الطبيعى أو القانون الطبيعى ورائد الفكرة العلمانية عالميا هو الفيلسوف اليهودى (سبينوزا) الذى خرج للتحدى الأكبر بين العلمانية والإسلام .



البَابُ السَّادِسُ

العلمانية والإسلام

العلمانية والإسلام:

إذا صحت دعوى العلمانية[(١)] في الغرب بالنسبة للدين الكنسى إنهم يتعايشون معه ويتعايش معهم دون تدخل من أحدهما فى شئون الآخر - وهى كما رأينا ليست صحيحة فى الحقيقة - فإنها بالنسبة للإسلام لا تصح على الإطلاق..! لقد كان الدين الكنسى منذ اللحظة الأولى دينا يهتم بالآخرة ويدير ظهره للحياة الدنيا نتيجة ما دخل فيه من تحريف فصل الشريعة عن العقيدة وجعله عقيدة صرفا إلا فيما يتعلق بالأحوال الشخصية ومع ذلك فقد كان العمل من أجل الآخرة يلقى أثره على الحياة الدنيا قصد الناس أو لم يقصدوا.. وعَوّا ذلك فى إدراكهم أم لم يعوه فكان ذلك الدين رغم التحريف الضخم فى كل جوانبه يعطى آثارا واقعية فى حياة الناس وسلوكهم وتصوراتهم ومشاعرهم وهى التى جاءت العلمانية لتزحزحها عن مكانها رويدا رويدا حتى أجلتها إجلاء كاملا.. فلم يعد للدين عند الأكثرية العظمى من الناس فى الجاهلية المعاصرة مكان على الإطلاق وبقى عند القلة (المتدينة) مجرد مشاعر ووجدانات وعلى الأكثر بعد (العبادات) ولكن هذه وتلك لا تحكم شيئا فى واقع الحياة وبهذا وحده - أى بمسخ الدين عن هذه الصورة المزرية - أصبحت العلمانية تتعايش على مضض مع الدين..! وقد كان هذا مسخا بالنسبة للدين الكنسى ذاته الذى شوَّهته الكنيسة حتى قطعت صلته بالأصل السماوى.. فكيف يكون الأمر بالنسبة لدين الله الحق..؟!
إن الدين الحق لا يمكن ابتداء أن يكون عقيدة مفصولة عن الشريعة.. فالالتزام بالشريعة فى دين الله الحق هو مقتضى العقيدة ذاتها.. مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ بحيث لا تكون الشهادة صحيحة وقائمة إن لم تؤد عند صاحبها هذا المعنى وهو الالتزام بما جاء من عند الله والتحاكم إلى شريعة الله ورفض التحاكم إلى أى شريعة سوى شريعة الله تعالى:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥].

---

(١) مذاهب فكرية - المصدر السابق من ص ٤٩٥

وهذا التسليم دلالة الإيمان وعبقرية الفهم إذ أن الإسلام جاء لتصحيح المفاهيم وتعميم الأوضاع بين البشر أما من اعتقد بأفضلية غيره عليه أو حتى مساواته معه فعدل عنه إلى غيره أو رضى بغيره ولم يجاهد بيده أو بلسانه أو بقلبه فقد خرج من دائرة الإيمان وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم..!!.

قال الله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور: ٤٧: ٥١] .

وقال ﷺ : **(إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضى وتابع فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن.. ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن.. ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)** [١] فإذا كان هذا أمر الله ورسوله فأنى يقول قائل: إن الإسلام يمكن أن يلتقى مع العلمانية التى تقول: لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين؟!!.

أو تقول: إن الاقتصاد لا علاقة له بالدين؟! أو تفصل بين حكم الدين وبين أى شىء فى حياة الإنسان؟! والذى أعد وهيأ أصحاب الفكر العلمانى والماركسى هم من أصحاب الأيدى الملوثة.

---

(١) رواه مسلم .

أصحاب الأيدى الملوثة :

يقول منظِّر الماركسية [١] فى مصر معبرًا عن المرارة والإحباط الذى أصاب الماركسيين: (الحماس والإلهام تلاشيا ليحل محلهما تساؤلات بلا إجابة.. وإحباط بلا حدود) أو يلخص تجربة الدولة الماركسية بقوله: (يتبقى أن الدولة هى أداة قمع لصالح طبقة ضد خصومها ولقد طبق هذا الشق بكفاءة أو بالدقة ببشاعة) ثم يسمو بها فى تحدٍّ واضح لكل ما له قيمة ليقول: (وعندما يصبح حزب مًا بقوة الدستور وقوة القانون فوق الجميع فإنه لا يكون بحاجة إلى جماهير ولا يكون بحاجة إلى كسبها فى صفة لأنه لا يكون بحاجة إلى الاحتكام إليها) ثم يعتبر أن فكره هذا خلاصة الأفكار ويرمى الآخرين -المسلمين- بالحقد على الفكر الماركسىِّ وجعله: (ثمرة محرمة من يتناولها يتعين عليه أن يطرد من الجنة) كما تحدث عن دولة الماركسية فى اليمن الجنوبى بقوله: (القمر العربى النجم الاشتراكى المتألق فى السماء العربية الصاعد إلى سمائنا على سلم العرق والدم والبناء.. إليهم أقول: عَدَنُ ليست جنتكم وحدكم بل جنة لنا جميعا نحن الاشتراكيين) مع أن هذه الجنة شهدت إظلاما فكريا وممارسة كهنوتية عقائدية - كما أنها شهدت ذبح خمسة عشر ألف يمنى فى ليلة واحدة؟! ويعلن باستعلاء وصراحة أنه: (ستبقى النظرية الماركسية بقوانينها العامة هى طوق النجاة)؟!

ويرتفع بماركسيته القاطعة والحادة ليقول: (فالعلم الماركسى لا يعرف الاجتزاء ولا الانتقائية.. وإذا كانت نصف إجابة فى بعض العلوم تعطى نصف الدرجة النهائية فنصف الإجابة فى العلم الماركسى تعطى صاحبها صفرا لأنها تعبير وبإيجاز شديد غير ماركسى) وكالعادة فهو يرى نفسه مفكرا إسلاميا مستنيرا وغيره خارجون عن فهم صحيح الدين ويؤكد أن: (النظرية الماركسية هى شىء يقينى لأنها مقولات مستندة إلى قوانين عامة تمت

---

(١) الدكتور: رفعت السعيد. محنة الماركسية فى بلادنا تأليف جمال سلطان دار الصفوة مقتطفات من الكتاب

رقم الإيداع رقم: ٢٦٩٨/ ٩٨

البرهنة على صحتها) وهو مع ذلك يوافق صاحب المعجم الفلسفى [1] على أن: (المادة مستكفية بنفسها مستغنية عن خالق يوجدها)؟!..حاش لله؟! فكيف يستقيم هذا الإيمان بالمادة والإيمان بالله سبحانه وتعالى..؟! كيف يستقيم الإيمان بالأصل الماركسى الأصيل المتمثل فى (المادية الجدلية) وناتجه الحتمى وفق ما سجلته الموسوعة الفلسفية الماركسية من: (أن أى دفاع أو تبرير لفكرة الله مهما كان جيدا ومهما حسنت نواياه هو تبرير للرجعية.. وحجر الزاوية فى المادة الجدلية هو القول بأن العالم مادى ولا شىء فى العالم بجانب المادة وقوانين حركتها وتغيرها فهو -هذا القول- عدو صارم غير متصالح لكل مفاهيم الماهيات التى تتجاوز الطبيعة بصرف النظر عن الأردية التى يضعها علماء الدين مع الإيمان بالله) ويعلن أن الوحى قد تم دفنه مع موت النبى ﷺ وذلك فى قوله: (بعبارة واحدة أرى مع انقطاع الوحى حلَّ العقل الجمعى محل الوحى وعلينا أن نعتمد عليه) وهذا فى واقع الأمر تعبير عن واقع فكرى يجنح إلى الاصطدام مع أى فكر إسلامى عن عمد وبغير إنصاف أو رويَّة وقد ردَّ القرآن الكريم على هذا بقول الله ﷻ:

﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٢: ١٠٦].

وبقوله جل شانه: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) المفكر الماركسي: مراد وهبة.

فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ [المجادلة: ١٩، ٢٠].

ويقول رائد العلمانية[1] في مصر موضحا رأيه في تجريد القرآن من خاصية التشريع: (إن القرآن الكريم ستة آلاف آية ما يتضمن منها أحكامًا للشريعة أو تشريعات في العبادات أو المعاملات لا يصل إلى سبعمائة آية منها حوالى مائتى آية فقط هى التى تقرر أحكامًا للأحوال الشخصية والمواريث أو للتعامل المدنى أو الجزاء الجنائى.. أى أن الآيات التى تعد تشريعات قانونية للمعاملات هى مجرد جزء واحد من ثلاثين جزءا من آيات القرآن بعضها منسوخ ولا يعمل به.. أى أن الأحكام السارية أقل من واحد على ثلاثين وعلى وجه التحديد ثمانين آية) وهذا الاختزال الذى اصطنعه منقوض بأن القرآن تشريع كامل كما أورد فى رؤية سابقة كلاما بهذا المعنى يقول فيه: (كان القرآن تشريعا كاملا فى الدين والدنيا للفرد والمجتمع للحاكم والمحكوم ربط الإنسان وأفعاله بالله لتحويل حياته إلى عبادة خالصة) فماذا يعنى هذا التناقض غير إرباك المسلمين؟!

وهو من - الحريصين - على الطعن فى المقدسات والثوابت الدينية بدعاوى - التنوير والتعمير - ومن مطاعنه فى تلك الثوابت:

١- أن الإسلام عنده قد تحول على يدى الرسول إلى اتجاه عسكرى.

٢- أن القرآن فيه أخطاء؟!.

٣- أن الرسول كان يحكم بوثائق الجاهلية وقوانينها..!.

٤- وأن أبا بكر قد اغتصب حقوق النبى.. وجاء بدين غير دين محمد!.

٥- وأن الصحابة قد ارتدوا إلى خلق الجاهلية وطباعها!.

---

(١) المستشار سعيد العشماوى - مجلة الإسلام وطن - العدد ٢٠٣ مقتطفات من صـ١٨ - ١٩ أ.د / محمد عمارة تحت عنوان: سقوط الغلو العلمانى.. عن الإسلام السياسى سعيد العشماوى صـ٣٥ .

٦- وأن الحكم بما أنزل الله كان خاصا بالرسول.. وبموته سقطت الشريعة الإلهية!!.

٧- وأن الدعوة المعاصرة للحكم بشرع الله هى دعوة يهودية!.

٨- وأن بعض الأحاديث فى صحيح البخارى _ أصح مجاميع الحديث ظنية وليست قطعية ونسب إلى لجنة الفتوى بالأزهر هذا الحكم وزاد على ذلك -: (أنها تتعارض[1] مع القرآن).. وعرض لبعض هذه الأحاديث ومنها: حديث: (كُتِبَ على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة) بنص الكاتب وحديث: (**احتج آدم وموسى – فقال له موسى: يا آدم إلخ الحديث..**) وحديث: (**إن أحدكم يُجْمَعُ خَلْقُهُ فى بطن أمه أربعين يوما – هكذا ولم يذكر (نطفة) – ثم يكون عقلةً مثل ذلك إلخ الحديث**)، وقال: إن هذه الأحاديث تتعارض مع قول الله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ ﴾ [فصلت: ٤٦] وقول الله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور: ٢١] وتناسى مناسبة الآيات لما قبلها وما بعدها فالأولى جاءت بعد قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [فصلت: ٤٥] ولا يخفى ما فى الخطاب القرآنى من بيان لحال قوم موسى عليه السلام من الوقوع فى الاختلاف والشك ولولا رحمة الله بهم لأوقع عليهم الحساب ثم جاءت الآية – المتعارضة فى نظره لتقييم الوضع ووعد الله للصالحين ووعيده للعصاه! ثم جاءت الآية الثانية وصدرها: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور: ٢١] إلخ الآية

---

(١) روز اليوسف – العدد ٣٨٧٩ ص ٤٨ وما بعدها – مقتطفات -

المذكورة فى الاستشهاد – ولا يخفى أيضا على ذى بصيرة – أن الآية تبشر المؤمنين وذريتهم المؤمنة بالنعيم دون أن ينقص من درجتهم وحسناتهم وأن كل إنسان مرهون بعمله فإما الجنة وإما النار..!! ثم لننظر إليه وهو يستشهد بصحف إدريس المصرى[١] حين يقول: (العقل الكونى فكرة عبر عنها العقل الإلهى – والكون المادى هو فكرة عبر عنها العقل الكونى وفى قلب الكون توجد الشمس مركز عطاء الحياة فهى صورة للروح وواهبة للحياة التى توجد فى قلب كل إنسان) ويفسر العقل الكونى (بالكلمة) بكل مظاهرها وخصائصها.. وتناسى أيضا وهو يستشهد بأن إرادة الله هى الحاكمة والغالبة وكلمته هى العليا؟! ثم يتمادى فى بسط استشهاد (اليسريات والفكر الدينى) تحت عنوان (مفهوم الشفاعة[٢]) ليقول: (أن الله هو العقل الأسمى والكلمة هى العقل الكونى وأن هذا العقل الأسمى يعمل فى الطبيعة ضمن قوانين الضرورة وقواعد السببية وشرائط النسبية) ويقول: (إن الفكر التقليدى الدينى لا يبرز الأسباب التى تدعو أى امرئ إلى الدعاء أو التوبة إليه أو طلب الشفاعة أيا من كان الشفيع إذ ما جدوى الدعاء أو التوبة أو الشفاعة إذا كانت لا تغيِّر مقدورا ولا تبدِّل مسطورًا)..!! ويضيف: (بل إن الفكر الدينى التقليدى قد جعل الله سكونا وجعل الخلق بعيدا عنه واعتبر أن الأعمال قد أكملت منذ تأسيس العالم وأن الأقلام قد جفت والصحف قد طويت.. هذا الفكر اضطر كيّما يثبت اعتقاد المؤمن به إلى اختلاق فكرة العناية الإلهية وابتداع مبدأ شفاعة الأولياء والقديسين وكلا الأمرين عيب فى الذات الإنسانية والذات الإلهية) وهذا مفهوم خاطئ عن فهمه لحقيقة الشفاعة وأنه بإذن من الله تعالى لمن رضى عنه قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٨] وهل يأتمر الشفيع إلا بأمر من

---

(١) روزا اليوسف العدد ٣٩٣٥ اكتوبر ٢٠٠٢م.

(٢) روزا اليوسف العدد ٣٩٤٣ من ص ٦٦، مقتطفات يناير ٢٠٠٤.

الله تعالى؟!

ثم يسوق بعد ذلك هذه الطائفة من الأفكار الخبيثة فيقول:

١- خلق الله الإنسان كيما يخلق به.

٢- أساس الذات الإنسانية هو العقل الذى صدر عن العقل الأسمى فالمشابهة والمواصلة بين الله والإنسان هى فى العقل وعمله لا فى الشكل الجسدى والهيئة البشرية.

٣- الإنسان أداة النظام فى الكون.

٤- الإنسان لا يستلم نور الحياة المقدسة لكنه يعطيها كذلك.

٥- القصد من خلق الإنسان أن يشارك مع القوى الخلاقة وأن يساهم فى عملية الخلق.

٦- لن يكتمل العالم حتى تؤدى البشرية الدور المحدد لها.

٧- الله أعطى البشرية إذنا بالخلق وإتمام عمله.

٨- إرادة الله شاءت ألّا يكون العالم كاملا حتى يؤدى الإنسان دوره.

٩- إن الذين يرعون ويصونون جمال العالم يتعاونون ويتوافقون مع أوامر الله.

١٠- الإيمان يتداعى إلى الابتكار والتدريب.

١١- الإنسان معبد على الأرض.

١٢- مهمة الإنسان هى خلاصة أو نجاة أو إنقاذ العالم.

١٣- خلق الله البشرية لتكون محاكاة لحكمته القدسية ولتنشر الحب بين الجميع.

١٤- الإنسان صورة لله (عقل لعقل).

١٥- الله يترافق ويتعاون مع الإنسان وحده.

١٦- الإنسان أكبر من أرباب (أسياد) السموات.

١٧- الإنسان لشغله بالفكر فإنه يصعد إلى السموات العلا ليمتلئ بالمعرفة المقدسة.

١٨- الإنسان مدعوٌّ إلى المشاركة فى الذات الإلهية.

١٩- الإنسان العارف يجمع فى نفسه كل المتناقضات.

٢٠- من خلال العقل يمكن للإنسان التحول ليكون مثل الله!.

٢١- الإنسان بالعقل يولد من جديد.

٢٢- الإنسان الذى يستنير بشعاع واحد من نور الله يستطيع تخطى الأقدار وتجاوز المصادر (التى يقال إنها مخطوطة أو مكتوبة).

٢٣- الإنسان ذو المعرفة (العارف بالله) يعرف أنه فيما يتعلق بذاته لا يوجد مستحيل.

٢٤- على الإنسان أن يكون المأوى والملاذ لكل مخلوق حى.

٢٥- على الإنسان أن يعمل فى الحياة الدنيا ضمن شروط الضرورة ونظام السببية وقواعد النسبية.

إن فكرًا واعتقادًا بهذا المعنى لا يمكن أن يرتجى من ورائه خيرًا أو يجتنى من ورائه إلا الشوك وهو فكر يعبر عن واقع أليم يعتقد أصحابه أنهم المنقذون للبشر والمخلصون للبشرية..! ومما يوقع فى الخطأ اعتقاد أن هؤلاء -من المفكرين- أو المجددين إذ إنهم فى الواقع ليسوا كذلك؟! لقد ذهب أحدهم [1] إلى أن أذان الفجر منه ما هو كاذب ومنه ما هو حقيقى ويقول متهكما: هل وقت المسلم رخيص إلى هذا الحد؟!.

هذا فضلا عن مطاعن فى القرآن الكريم -ذاته- من شراذمَ تدَّعى العلم والإلهام ومطاعن فى السنة وكل هذا بقصد النيل من شريعة الله تعالى..؟!

يقول الله تعالى مبشراً المؤمنين: ﴿وَجَاهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ

---

(١) د/ أحمد الفنجرى روزا: ص٦٢ العدد ٣٩٤٣ يناير ٢٠٠٤م.

وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ (٧٨) ﴾ [الحج: ٧٨].

ويقول محذرًا العصاة والمذنبين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) ﴾ [المائدة: ٥٤].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٦٥) بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٦٦) ﴾ [الزمر: ٦٤ : ٦٦].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (٢٧) لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٩) ﴾ [التكوير: ٢٦ - ٢٩].

تم والحمد لله

الفهــرس




تم بحمد الله

مع تحيات

حمدين عبدالله هـ

٠١٢٧٥٠٤٣١٤٠٢